الباب الأول

فى الأدب

الفصل الأول

ما الأدب؟

— ١ —

لعل أول مايعنينا فى فاتحة هذه الفصول إنما هو القول فى نشأة هذه الكلمة — أدب — فى تاريخ اللغة العربية و بيان المعانى التى تواردت عليها أثناء القرون السالفة حتى اطمأنت إلى هذا الوضع الاصطلاحى الحديث ..

و إن نحن وقفنا عند المأثور من النصوص الجاهلية فلن نجد فيها هذه الكلمة حتى يخيل إلى الناظر أن العرب لم يعرفوها فى لغتهم القديمة إلى أن نبغت فى عصر الأمويين . ولكن ذلك وحده لا ينفى الكلمة عن العصر الجاهلى ، إذ كان من المقرر الثابت أن الأدب الجاهلى ضاع منه كثير[1] ، وما بقى وصل إلينا بعد عهد طويل مضطرب بالأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية ، وكان وصوله بطريق الرواية التى اعتمدت على الذاكرة — وهى غير وثيقة الحفظ — فناله من ذلك نقص وتحوير ، وصارت نصوصه الباقية لاتنتهى ، فى رأى المتحرجين ، إلى يقين ، ولا سيما إذا سمحنا لنظرية الانتحال أن تبسط سلطانها على أكثر الأدب الجاهلى

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧ طبعة مصر . .

كما يرى ذلك جماعة من المستشرقين و بعض الباحثين من الشرقيين[١] .

ونحو ذلك يقال فى اللغة العربية نفسها ، فقد بقيت شفوية مختلطة اللهجات ، فيها الأصيل والدخيل ، لم يحاول أحد إحصاء ألفاظها ، وتحديد معانيها ، و بيان لهجاتها ، وضبط كلماتها إلا فى عصر متأخر لا يسمح بالثقة المطلقة ، والتحرى الدقيق والجمع التام ، فكانت المعاجم اجتهادية تحوى أكثر المواد لا كلها[٢] . ومن سوء الحظ أننا للآن لم نظفر بهذا المعجم التاريخى الذى يتتبع الكلمات اللغوية فى أطوار التاريخ شارحاً معانيها المتعاقبة ، فإن هذا لو توافر لكان أجدى على اللغة والعلم والأدب من كثرة المعاجم التى قامت على أصول يسيرة ، وجمعت بأسلوب مختلط لا تنسيق فيه .

فالقول بأن هذه الكلمة لم تجر على ألسنة الجاهليين ، لأنها لم ترد فيما رجحت نسبته إليهم من اللغة والأدب ، قول لا ينتهى كذلك إلى يقين .

ولكن الذى يلفت النظر حقاً أن هذه الكلمة ، على حقتها وفصاحتها ، لم ترد فى القرآن الكريم على الرغم من ورود معناها فى آيه بكثرة ، وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته ، ولعل أحداً لا يستطيع أن يقف من القرآن الكريم موقفه من اللغة والأدب الجاهليين فيشك فى لغته أو نصوصه ، إذ لا شك فى صحة روايته عن الرسول عليه السلام ، فهل يمكن أن تكون هذه الكلمة من غير لغة قريش التى نزل بها القرآن ، والتى حفظت فى المصاحف من عهد عثمان إلى الآن ؟ وهذا أيضاً لا يمكن القطع فيه بشىء لأن القرآن لم يستوعب ألفاظ اللغة القرشية جميعاً ، وكل ما يمكن قوله أن الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم يقيناً ، و إن كان ورودها فى الأدب الجاهلى موضع شك وارتياب .

---

(١) طه حسين : فى الأدب الجاهلى : ص ١١٣ ، الطبعة الثانية .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ الطبعة الأولى .

كذلك يقف بعض الباحثين[١] من الأقوال المنسوبة إلى الرسول عليه السلام وإلى صحابته إبان ظهور الإسلام موقف التردد وعدم الاطمئنان إذ لاسبيل إلى تحقيق ما صح وتواتر أو لم يصح منها كقوله عليه السلام : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى ، ورُبيت فى بنى سعد » وغير ذلك مما يمر بك فيما يلى . ومعنى هذا أن التاريخ القديم لكلمة — أدب — مجهول جهلا علمياً مادمنا لا نظفر بالدليل القاطع أو النص الأول على وجودها .

هذا هو المعروف الآن بين المؤرخين . ومع ذلك فليس ما يمنعنا هنا أن نقف قليلا لنلاحظ قبل كل شىء أن هذه الكلمة يغلب أن تكون عربية الأصل لوجهين ظاهرين :

أحدهما : وجود أخواتها المشتركات معها فى المادة والقريبات منها فى المعنى ، مثل بدأ وأبد ودأب ، وهى تشترك جميعاً فى معنى التعلق بالشىء ومباشرته . ويندر جداً أن ترد هذه الكلمات دون كلمة — أدب — لخفتها ، ودوران معناها فى الحياة العربية الجاهلية ، مع تشابهها فى المعنى وهذه الأخوات .

الثانى : ما ثبت من عدم ورود هذه الكلمة فى اللغات السامية الأخرى كالسريانية والعبرية[٢] التى تعد من أخوات العربية وأصولها فرجح أن تكون عربية الأصل وليست بالدخيلة .

وهناك من يفرض[٣] أن تكون هذه الكلمة دخلت العربية وسائر اللغات السامية من لغة الشومريين الذين عمروا جنوبى العراق من أقدم العصور وأخذها

---

(١) طه حسين فى الأدب الجاهلى ص ١٩ .

(٢) طه حسين فى الأدب الجاهلى ، ص ٢٠ ومن بعيد ، ص ٢٥٥ .

(٣) أحمد حسن الزيات : فى أصول الأدب ص ٩ وجورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ، ص ١٢ .

عنهم الساميون الطارئون عليهم ، إذ كان معناها عندهم — إنسان — ولعلها استحالت بعد من أدب إلى أدم ، ثم آدم فى اللغات السامية ، واحتفظت العربية بالأصل الشومرى لعزلتها النسبية فى الصحراء ، واستعملته فيما يؤدى معنى الانسانية — أو الآدمية — من كرم الخلال وما يتصل به . وهو فرض نثبته هنا دون أن يكون حقيقة علمية مقررة .

ثم نلاحظ كذلك أن هذه النصوص المنسوبة إلى الرسول وصحابته كثيرة تعدَّد فيها معنى الكلمة كما تنوعت مادتها . منها ماروى أن عليا رضى الله عنه قال للرسول عليه السلام : يارسول الله نحن بنو أب واحد ، وتراك تكلم وفود العرب بما لانفهم أكثره ، فقال الرسول : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى وربيت فى بنى سعد» فالمادة هنا فعل متعد معناه التعليم ، وروى عبد الله بن مسعود أن النبى عليه السلام قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته » والمأدبة اسم مكان من الأدب على التشبيه ، فالقرآن يجمع الآداب التى يدعو الله تعالى عباده إليها من خلق كريم ، وحكم صالحة ، ومواعظ نافعة من كل مايتصل بمعنى التهذيب النفسى . وفى حديث على بن أبى طالب : « أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة » . وهى هنا جمع آدب كـكاتب وكتبة ، وهو الداعى إلى المأدبة ، وهى الطعام الذى يصنعه الرجل يدعو إليه الناس[1] وفى هذا تفسير الأصل اللغوى الأول لهذه المادة فى رأى بعض العلماء .

فهذه الأقوال وسواها من الكثرة بحيث يبعد نفيها أو حمل هذه المادة عليها جميعاً . ونجد المتحدثين فيها متفاهمين على معانى الكلمة مما يدل على أنها غير مرتجلة وقد شاعت فيما بعد دالة على نفس المعانى التى دلت عليها صدر الإسلام بتوسع قليل . وهذا يرجح كثيراً أن الكلمة كانت معروفة أيام الرسول وصحابته

---

(١) ابن الأثير : النهاية مادة أدب .

وفى الجاهلية أيضاً ، وكانت تدل على معنى الخلق الكريم وما يتركه من أثر فى الحياة العامة والخاصة[١]

على أن هناك أقوالا أخرى محمولة على العصر الجاهلى لا بأس من الوقوف عندها لحظة لعل فى ذلك ما ينفعنا هنا ، ففى كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب « وقد أوفدتُ أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم » . وفى كلام علقمة بن علاثة أمام كسرى « فليس من حضرك منا بأفضل ممن غزب عنك ، بل لو قسمت كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له فى آبائه أنداداً وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف وبالرأى الفاضل والأدب معروف »[٢] .

فهذه الروايات ونحوها لانشيد بها إذ كانت بعيدة العهد معرضة لدعوى الانتحال ولكنها من ناحية ثانية تبين لنا ، على الأقل ، رأى هؤلاء المنتحلين فى عرب الجاهلية ، وكيف كانوا يتصورون حياتهم الاجتماعية ، والأدبية ، والسياسية . وهذه الصورة تشير إلى أن معنى كلمة الأدب من الناحية التهذيبية كان معروفاً قبل الإسلام . ألا يدل هذا على أن كلمة الأدب عُرفت فى الجاهلية لأداء هذا المعنى ؟ هذا شىء لايمنع من رجحانه مانع .

— ٢ —

فلما كان العصر الأموى رأينا كلمة الأدب تدخل التاريخ الصحيح ، فيشيع استعمالها وتتعدد مشتقاتها ، وتتمايز معانيها ، وتصبح عنواناً على الوسيلة الفذة للتربية والتعليم ، وينشأ من ذلك مهنة لجماعة من الأساتذة الممتازين الذين ينشئون الطبقة العالية ، وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء ، وكانوا يسمون المؤدبين كأبى

---

(١) جولدزيهر Goldziher دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ عدد ٨ ص ٥٣٢ من الترجمة العربية ، والزيات فى أصول الأدب ص ٧ .

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ج ١ ، ص ٩٩ — ٩١ من المطبعة الشرقية ١٩١٦م .

معبد الجهنى وعامر الشعبى وكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان ، وصالح بن كيسان مؤدب بنى عمر بن العزيز ، والجعد بن درهم مؤدب ومروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين[١]

والنصوص المرفوعة إلى هذا العهد ناطقة بذلك كله فقد قال زياد فى خطبته البتراء : « فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم . . أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن »[٢] . وواضح أن المادة هنا مستعملة فى معناها التهذيبى المتصل بالخلق والسلوك ، وهى كذلك فى قول بعض الفرازيين من شعراء الحماسة : —

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه ، والسوءة اللقبُ

كذاك أدبت حتى صار من خلقى أنى وجدتُ ، ملاكُ الشيمة الأدبُ

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده : « علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا »[٣] والتأديب هنا التعليم والتثقيف ، مثله فى قول عمر بن عبد العزيز لمؤدبه : كيف كانت طاعتى إياك وأنت تؤدبنى ؟ قال أحسنُ طاعة . قال : فأطعنى الآن كما كنت أطيعك[٤] .

وكان هؤلاء المؤدبون يدرسون للناشئين الشعر وما يتصل به من نسب وأيام وأخبار ، وأمثال ، شرحاً له ، وتوسعة للمعارف ، ومن ذلك تحدَّد المعنى التهذيبى لمادة الأدب منذ أواسط القرن الأول للهجرة وصارت تؤدى معنيين ممتازين : —

أحدهما هذا المعنى الخلقى التهذيبى وهو أخذ النفس بالمرانة على الفضائل

---

(١) الرافعى تاريخ آداب العرب ، ج ١ ص ٢٩

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٥٨ .

(٣) نقد النثر ص ٢٠ .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠١

الاجتماعية ، والشيم الكريمة من حلم وكرم وشجاعة وصدق ، ثم التأثر بهذه المرانة لاكتساب الأخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة فى الناس . ومن ذلك ما سمى عبد الله بن المقفع كتابيه الأدب الصغير والأدب الكبير لاشتمالهما على قوانين وأصول من تمسك بها صار أديباً أى فاضلا مؤدّباً ذا خلق كريم وسيرة محمودة .

والثانى هذا المعنى التعليمى القائم على رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من نسب وخبر وأمثال ومعارف تزيد العقل نوراً ، والذوق صفاء ، والنفس ثقافة وعرفاناً ، على أن هذه المعارف التى تكوّن الثقافة الأدبية امتازت من معارف أخرى كانت قوام الثقافة الدينية للمسلمين فى ذلك الحين[١] وهى القرآن الكريم والحديث الشريف وما يتصل بهما من تفسير وفقه ، وفتاوى عُنى بها الصحابة والتابعون عناية خاصة تقوم على صدق الرواية وتحرّى الصواب . ومن ذلك العهد امتاز الأديب — أو المؤدب — من الشاعر والكاتب ، فاذا غلب على الرجل درسُ الأدب وتعليمه فهو الأديب ، وإذا غلب عليه إنشاء الشعر فهو شاعر ، وإذا غلب عليه إنشاء النثر فهو كاتب وربما جمع الرجل بين هذه الألقاب الثلاثة أو اثنين منها[٢] .

وقد بقيت مادة الأدب تدل على هذين المعنيين منذ القرن الهجرى الأول إلى الآن مع تعديل بسيط يتناولهما ضيقاً وسعة خلال القرون التالية ، ولكنهما صارا أهم ماتعنى حتى أثر قولهم : الأدب أدبان : أدب النفس وأدب الدرس[٣] .

* * *

فلما انتصف القرن الثانى ونشأت العلوم العربية كاللغة والنحو والصرف واتخذت لنفسها هذه الأسماء الاصطلاحية انضافت إلى معنى الأدب التعليمى ، فاتسع قليلا وصارت الكلمة تدل على مأثور النظم والنثر وما يتصل به من نسب

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة أدب .

(٢) عبد الوهاب عزام الرسالة عدد ٢٩١ .

(٣) لسان العرب مادة أدب .

وخبر وصرف ولغة ونقد . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فان الحضارة العباسية قد صحبها من قوة العلوم العربية واستقلالها ، ومن استحالة الأوضاع الاجتماعية ، وتعدد النواحي الثقافية[1] ماجعل مادة الأدب فى أخريات القرن الثالث تؤدى المعانى الآتية :

أولا — هذا المعنى الخاص وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب والأيام ، والأحكام النقدية ، وهذا المعنى قريب مما كانت تؤديه فى القرن الأول وقد زاد عليه النثر الفنى ، والنقد الأدبى . ولقد ألفت فى هذا القرن الثالث كتب أدبية هى مصداق لهذا المعنى الخاص وتفسير له ؛ منها البيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٦ هـ والكامل للمبرد ٢٨٥ هـ وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرها مما تجد فيه الأدب الخالص مع مسائل لغوية ونحوية وآراء نقدية ، ومعارف قصصية .

ثانياً — هذا المعنى العام الذى يتناول المعارف الإنسانية ، والآثار العلمية ، وأنواع الفنون الجميلة والرياضة مما يوسع الثقافة ، ويكسب الشخص ظرفاً وأناقة . يدل على ذلك ماروى عن الحسن بن سهل الوزير العباسى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : الأدب عشرة : فثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما العود والشطرنج ولعب الصوالج فشهرجانية . وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الوحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر ومايتلقاه الناس بينهم فى المجالس . وواضح من هذا مقدار الآثار الاجتماعية والثقافية التى أدخلها الفرس فى الحياة الإسلامية الجديدة[2] . وعن الجاحظ « إنا وجدنا الفلاسفة

---

(١) راجع فى هذا الموضوع ضحى الاسلام لأحمد أمين .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية وزهر الآداب ج ١ ص ١٥٩ .

المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير . ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها[1] . وقد بقى هذا المعنى العام وزاد اتساعاً فى القرن الرابع كما يلى .

ثالثاً — هذه العلوم الأدبيـــة التى استقلت وصارت شيئاً غير الأدب الفنى الخالص وإن كانت لازمة للأديب يستكمل بها ثقافته ، ويستعين بها على إنشاء الأدب ، وفهمه ، ونقده ، كاللغة والنحو والنسب ، والأخبار ، والنقـــد ، وهى العلوم التى كانت عماد الثقافة العربية . وكانت بجانبها ثقافة دينية تنوعت علومها وعمقت أبحاثها لتفسير القرآن وعلوم الحديث ، والفقه ، وأصوله ، وعلم الكلام — التوحيد — ومذاهبه . وثقافة فلسفية منقولة فى الأصل عن اليونان والهنود والفرس وغيرهم من الأمم الأجنبية . وسنتناول العلوم الأدبية فى فصل خاص .

رابعاً — أدب النفس وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب مستحسن فى علم أو عمل من خلق فاضل ، وسيرة محمودة ، وقوانين يلزمها كل ذى حرفة أو منصب . وقد ألفت كتب فى هذه الفترة طبقاً لهذا المعنى وإقراراً له ، كأدب القاضى للامام أبى يوسف المتوفى سنة ١٨٠ هـ وأدب القراءة لابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ وباب الأدب فى صحيح البخارى ٢٥٦ هـ وفى حماسة أبى تمام ٢٣١هـ وأدب النفس لأبى العباس السرخسى سنة ٢٨٦هـ ألفه المعتضد بالله العباسى وهكذا يستمر هذا الضرب من التأليف فيما بعد القرن الثالث كأدب النديم لكشاجم الشاعر المتوفى سنة ٣٥٩ هـ ، وأدب الدنيا والدين للماوردى سنة ٤٥٠ هـ ، ثم آداب الصوفية للنيسابورى سنة ٤٤٥ هـ وآداب البحث والمناظرة .

* * *

(١) فى أصول الأدب للزيات ص ١١ .

فلما كان القرن الرابع كانت العلوم اللغوية مستقلة منفصلة عن الأدب ، وبقى النقد — أو العلوم البيانية — متصلا به أو جزءاً منه إذ كان بحثاً فى صميم الأدب من أخص نواحيه ، وهى الناحية الفنية ، وقد نشطت حركة النقد فى هذا القرن[١] وبلغت درجة سامية حاول هذا الفن أن يستقل على أثرها فتم ذلك له ، وصار علماً أو فناً أدبياً آخر ، ثم استحالت مسائله فأثمرت البلاغة التى انتهت إلى علوم المعانى والبيان البديع .

ومن أهم الكتب التى ظهرت فى القرن الرابع مثالا لنشاط النقد ومحاولته الوجودَ الاستقلالى ، كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٥٩ هـ وقد عرض فيه مؤلفه للشعر والنثر وحاول أن يدل على مواضع الجمال الفنى فيهما[٢] جامعاً فى ذلك بين مسائل النقد الأدبى والبلاغة ، ويقرب من ذلك كتابه ديوان المعانى وإن غلبت على هذا صفة الرواية المنسقة . ومثله كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٠ هـ « وفى هذا القرن الرابع كانت الخصومة عنيفة بين أنصار البحترى من ناحية وأبى تمام من ناحية أخرى . فلما تقدم هذا القرن ظهرت الخصومة قوية أيضاً بين أنصار المتنبى وخصومه ، واستفاد النقد من هذه الخصومة فألف الآمدى سنة ٣٧١ هـ كتابة « الموازنة بين الطائيين » ، وألف الجرجانى ٣٩٢هـ « الوساطة بين المتنبى وخصومه »[٣] وبجانب هذين ظهر الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ و بعض رسائل أخرى استطاع النقد بها أن يؤسس استقلاله من ناحية وأن يمهد لوجود البلاغة من ناحية أخرى . فلم يحل القرن الخامس حتى نهض بها أستاذها الفذ عبد القادر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . ومعنى هذا أن الأدب بمعناه الخاص ترك النقد

---

(١) تاريخ النقد الأدبى لطه ابراهيم ص ١٤٧ .

(٢) ، (٣) فى الأدب الجاهلى ص ٢٤ الطبعة الثالثة .

والبلاغة ووقف عند الشعر والنثر الممتازين ، وهكذا كلما نضج علم استقل تاركاً الفن الأدبي يدور حول مأثور القول . وأما المعنى العام فقد بقى على سعته يتناول جميع الآثار العقلية عدا الشرعية والفلسفية الحقيقية ؛ فقد ورد فى الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفاء ، وهى من آثار القرن الرابع : « اعلم يا أخى بأن العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضية ، ومنها الشرعية الوضعية ، ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هى علم الآداب التى وضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا ، وهى تسعة أنواع : أولها علم الكتابة والقراءة ، ومنها علم اللغة والنحو ، ومنها علم الحساب والمعاملات ، ومنها علم الشعر والعروض ، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها . ومنها علم الحرف والصنائع . ومنها علم البيع والشراء والتجارات أو الحرث والنسل . ومنها علم السير والأخبار وفى هذا أثر الثقافة اليونانية[١] وعلى هذا الوجه قال أبو القاسم اسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع أيضاً وقد جمع حرف الآداب :

إن شئت أن تعلم فى الآداب منزلتى ... وأننى قد عدانى العز والنعم

فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى ... والعود والنرد والشطرنج والقلم[٢]

فلما انتهى القرن الخامس انتهى معه استقلال العلوم الأدبية الهامة ووقف الأدب عند الشعر والنثر الممتازين . ومن ذلك الحين أخذ معنى هذه المادة يخضع لتحديد آخر يظهر فيما يلى :

أولا — أن إطلاق هذا اللفظ على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية لم يدم بعد عهد إخوان الصفاء ، فقد أخذ مدلوله العام يضيق حتى وقف

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة أدب .

(٢) تاريخ أدب العرب للرافعى جـ ١ ص ٢٧ الطرف الكريم من الخيل . والأوهاق جمع وهق وهو الحبل فى طرفه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة حتى تؤخذ .

عند علوم اللغة العربيـة و إن لم تحدد هذه العلوم إلى أواخر القرن الخامس[1] وسنفرد للكلام فيها فصلا خاصاً .

ثانياً — أن المعنى الخاص لكلمة الأدب تحدد بما يجرى عليه الاستعمال اليوم و بما يقرب من معناه فى القرن الأول . فقد أريد به مأثور المنظوم والمنثور . وهذا شىء غير العلوم الأدبية التى كانت جزءاً منه أول مانشأت فى القرن الثانى .

ثالثاً — أن جماعة العلماء اتجهت عنايتهم أكثر من قبل إلى هذه العلوم الأدبية — التى كانوا يطلقون عليها كلمة الأدب أحياناً وعلى أصحابها الأدباء — واختلفوا فى حصرها على ممر القرون التالية حتى عصرنا الحالى . نذكر منهم على سبيل المثال الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ الذى جعلها اثنى عشر علماً ، والسكاكى سنة ٦٢٦هـ فى مفتاح العلوم ، ومعجم الأدباء لياقوت ٦٢٦هـ ، والشريف الجرجانى فى مقدمة شرح المفتاح سنة ٨١٦ هـ وغيرهم كثير حتى انتهى الرأى إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فقد عرض للأدب الكلام يحسن أن نقف عنده قليلا ، لأنه حاول تعريف الأدب .

عقد ابن خلدون فى مقدمته المشهورة فصلا فى علوم اللسان العربى تناول فيه النحو واللغة والبيـان — أى علوم البلاغة — ثم الأدب فعد الأدب علماً من علوم اللسان العربى ، وجعله قسيما للنحو واللغة والمعانى والبيان والبديع .

ولو أن ابن خلدون أطلق هذه التسمية على العلوم اللسانية كلها ، أو ذكر كلمة الأدب وحدها على هذه العلوم — كما فعل بعض السلف — لهان الأمر ولما وقع فى هذا الاضطراب الذى ظهرت فيه حيرته وشعر هو بها من أول ماعرض للقول فى — علم الأدب — آخر الفصل المذكور .

يعرف ابن خلدون أن لكل علم موضوعاً يبحث فى إثبات عوارضه أو نفيها

(١) فى أصول الأدب للزيات ص ١١ .

فموضوع الطب مثلا جسم الإنسان من حيث مايعرض له من الأمراض وعلاجها وموضوع النحو — ومنه الصرف أحياناً — الكلمات العربية وما يعرض لها كالإعراب والبناء وما يتبعهما من شروط النواسخ وحذف العائد وكسر إن أو فتحها ، ونحو ذلك ؛ فما موضوع علم الأدب عنده ؟ يقول : « هذا العلم لاموضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم » . لم يستطع ابن خلدون أن يطرد الأدب مع سائر العلوم اللسانية إذ لم يجد له موضوعاً على نظامها فاحتار ، فنفى عنه الموضوعية ، وساقه هذا المساق الشاذ . والسبب فى هذا الاضطراب الذى وقع فيه أنه عد الأدب علماً من هذه العلوم اللسانية ، وما كان الأدب فى حقيقته إلا فناً كلامياً ، يصدر عن الأديب ، ويتخذ من هذه العلوم وسائل تعينه على تحقيق غايته التعبيرية والتهذيبية ، فقياسه على هذه العلوم النظرية ذات القوانين خروج به عن طبيعته . هذا شىء ، وشىء آخر يعرفه النقد الأدبى ، وهو أن لهذا الفن الأدبى موضوعاً مقرراً هو الطبيعة والإنسان ، أو الطبيعة كما يشعر بها الإنسان فى نفسه فيصور عواطفه وآراءه ، أو خارج نفسه حين يتناول مشاهد الحياة المادية وأحداثها المختلفة واصفاً أو ناقداً أو مفسراً ، وهكذا لم يحرم هذا الفن الرفيع من أن يكون ذا موضوع ككل العلوم والفنون .

ولا شك أن من وسائل تحصيل هذه الموهبة الفنية دراسة النصوص الأدبية وما يتصل بها « من شعر عالى الطبقة وسجع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مشبوتة أثناء ذلك متفرقة . . » إلى آخر ما ذكره فى هذا الفصل بعقب ما قدمناه لك منقولا عنه .

ثم ينتقل من ذلك إلى تعريف الأدب فيقول : « ثم إنهم إذا أراد واحد

هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل فن بطرف يريدون علوم اللسان أو العلوم الشرعية . . الخ » .

وهنا نلاحظ أولا أنه يطلق على الأدب كلمة الفن وهو فى عرف المعاصرين إطلاق صحيح مقبول ، وإن ظهر لنا أن المتقدمين لم يتحروا دائماً التفرقة بينه وبين العلم كما نفهمها نحن الآن . ولكن المسألة هى : هل هذا التعريف ، الذى يسوقه ابن خلدون كالراوى له ، يصلح تعريفاً للأدب أو للتأدب ؟ . هل ينطبق على هذه النصوص الجيدة الممتازة التى ندرسها فى الكتب ونتلقاها عن الكتاب والشعراء أو هو بيان للوسيلة التى يعتمد عليها الطالب لتنمية مواهبه لعله يحسن إنشاء الأدب ونقده وتذوقه ؟

إذا كان الأدب ، كما عرفه الأقدمون ، هو مايؤثر من الشعر والنثر — وهو وصف صحيح — فان ما ذكره ابن خلدون ليس من تعريف الأدب فى شىء ، وحسبه أن يكون تعريفاً للتأديب أو تحصيل الثقافة اللازمة للمتأدب والتى تعينه فى تقويم لسانه وتهذيب ذوقه .

— ٣ —

وإذاً فما الأدب ؟

فى لسان العرب : وأصل الأدْب الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس مدعاة ومأدبة . والأدب الذى يتأدب به الأديب من الناس ، سمى أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح . وفى الحديث عن ابن مسعود « إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته » . وتأويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه وفى المحيط الأدب محركة الظرف وحسن التناول ، وأدَّبه علمه فتأدب والأدب بالفتح العجب كالأدبة بالضم وأدب البحر كثرة مائه .

والذى يفهم من هذا أنهم يرجعون المادة إلى الأدب وهو الدعوة إلى الولائم ثم يجدون مناسبة بين هذا المعنى اللغوى الأول وبين معنى الأدب إذن كان داعياً إلى المحامد والفضائل . وهذا أحد الوجوه التى اتجه إليها الباحثون فى أصل هذه المادة . وهناك وجه آخر يراه الأستاذ تَلَمِّينو المستشرق الأيطالى المعروف والمتوفى سنة ١٩٣٨ م ، « فهو يشتقها من الدأب بمعنى العادة ، ويرى أن هذه الكلمة لم تشتق من المفرد ، وإنما اشتقت من الجمع فقد جمعت دأب على أدآب ثم قلبت فقيل آداب كما جمعت بئر وبئم على آبار وأبآم ثم قلبت فقيل آبار وآبام » . قال الأستاذ نالينو : « وكثر استعمال الآداب جمعاً للدأب حتى نسى العرب أصل هذا الجمع وما كان فيه من قلب ، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه ، فأخذوا منه مفرده أدباً لا دأباً ، وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ، ثم انتقل من هذا المعنى الطبيعى القديم إلى معانيه الأخرى المختلفة » . (١) وقد ذكرنا سابقاً ماقيل أن هذه المادة شومرية الأصل أخذها الساميون عنهم . واحتفظت بها العربية سليمة لعزلتها النسبية فى الصحراء . وكل تلك فروض يراد بها إزاحة الستار عن الأصل الأول لمادة الأدب . والذى أرجحه أن هذه المادة عربية جاهلية النشأة كما ذكرنا ذلك فيما مضى .

أما عن الناحية الاصطلاحية فيلاحظ ، قبل كل شىء ، أن ذلك المعنى الخلقى المتصل بالفضائل النفسية أو الأصول الدينية لا يراد هنا ، بل قد يتعارض مع المعنى الفنى المقصود الذى يقابل بالعلم نريد هنا ذلك الفن الكلامى الذى يعبر عن العقل ويصور الشعور ؛ وهو كما ترى مدلول عريض يتناول هذه الأهاجى المقذعة التى ثارت بين جرير والفرزدق والأخطل فى القرن الأول كما يتناول خمريات أبى نواس وغلمانياته ، وهى جميعها نكر فاحش وإثم شنيع فى رأى الدين والأخلاق .

(١) فى الأدب الجاهلى ، ص ١٨ وفى أصول الأدب ، ص ٨ .

وبعد هذا تعترضنا هذه الصعوبة التى تقف دائما فى وجه الدارسين ، صعوبة التوفيق إلى حدود منطقية دقيقة لأكثر المصطلحات التى تجرى على الألسن دون أن تتضح مدلولاتها فى أذهان مستعمليها أو يكونوا متفقين على مايها يعنون. من ذلك كلمات الجمال . والشعر ، والخيال ، والأدب ، والمثالية وغيرها كثير . وذلك أن هناك فرقا واضحاً بين الأشياء الحسية . التى يتلقاها الأنسان بحواسة الظاهرة ويجرى عليها تجاربه المتنوعة ويبرئها من التأثر بمزاجه وعواطفه ، وبين الأشياء الروحية والمعنوية التى يصعب إخضاعها للتجارب المحدودة ، والنواميس الثابتة لتغيرها واتصالها بالطبائع والانفعالات . فالأولى يمكن تعريفها بدقة أو قريب من ذلك كالمثلث والجزيرة والأجسام الصلبة والسائلة ، والثانية تجد معانيها مبهمة غير محدودة حتى فى البيئة الواحدة وبين المشتغلين بها . وقد يحتال بعض الباحثين للخروج من هذا الأبهام فيضع تعاريف عامة تتناول أكثر المعانى الجزئية ، ولكن ذلك يزيد فى غموضها إذ لا يعرف القارىء أى المعانى يراد . وربما كان خيراً منه ذلك الذى يذكر للكلمة مايريد لها من معنى فى موضوعه ثم يشير إلى أن لها معانى أخرى فى غير هذا المقام .

وقد رأيت ماطرأ على كلمة — الأدب — من معان فى خلال القرون المتعاقبة ثم رأيت ما كانت تدل عليه من مأثور الشعر والنثر وما يتصل به شرحا أو نقداً ، ودرست هذا التعريف الذى ذكره ابن خلدون وكيف كان اضطرابه الشديد. كل ذلك يدعونا إلى أن نتريث قليلا لعلنا نتبين طبيعة هذا الفن الادبى ، ونضع له من الرسوم مايقربه ولو بعض التقريب ، إذ كانت الأقوال التى قيلت عن الادب قديما وحديثاً أكثرها أوصاف أو تقاريظ . وقد رأيت شيئاً منها وارداً كتب الأدب العربى فلنورد بعض ما قال الغربيون .[1]

---

(١) رجعت فيما يلى من هذا الفصل إلى الفصل الثانى من كتاب : Principles of Literary Criticism : أليف Winehester .

يقول إمرسن Emerson : « الأدب سجل لخير الأفكار » وهذا التعريف كما ترى يصح أن يطلق على الأدب بمعناه العام المعروف لنا الآن الذى يتناول جميع الآثار العقلية التى ينتجها الناس فى أية ناحية علمية أو فنية . وأما إذا وضعناه ليدل على مأثور الشعر والنثر كان تعريفاً جامعاً غير مانع ، فلا شك أن كتب الهندسة والطبيعة ، فيها من خير الأفكار ، ولم يقل أحد إنها من طراز شعر البحترى أو نثر عبد الحميد الكاتب والجاحظ وبديع الزمان .

ويقول آخر ولعله الأستاذ ستپفورد بروك Stopford Brooke : « نريد بالأدب أفكار الأذكياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يلذ القارىء » ، وهذا القول قد عنى بناحية الجمال فى الأداء ليبعث اللذة فى نفوس القارئين . ولكنه كسابقه يسمح للنظريات الهندسية والمسائل الجبرية أن تطرق باب الأدب متى كانت حسنة التنسيق قوية الإقناع ، على أن اللذة المقصودة هنا مبهمة غير واضحة .

وهناك إجابة للكاتب الفرنسى الكبير الأستاذ سانت بيف Sainte Beuve عن سؤال متصل بموضوعنا : ما الأديب ؟ قال : « هو الكاتب الذى يغنى العقل الإنسانى ، ويزيد ثروته ، وهو الذى يعينه للسير قدماً ، وهو الذى يكشف حقيقة أدبية ويعرضها واضحة ، أو ينفذ إلى العاطفة الخالدة فى قلب الانسان ، فينشرها فى حين يظن الناس أن كل ما فيه مرتاد معروف ، وهو الذى يؤدى فكرته أو ملاحظته أو رأيه فى صورة دقيقة معقولة جميلة ، ومن يخاطب الناس جميعاً بأسلوبه الخاص ولكنه أسلوب الجميع ، أسلوب حديث وقديم معاً ، وصالح لكل زمان » فالأدب عنده ، إذاً ، هو الكلام الدقيق الجميل الذى يعبر عن الحقائق الأدبية والعواطف الإنسانية . ولكن هذه الأوصاف التى ذكرها سانت بيف لاتتوافر

لكثير من الناس ؛ فاذا أصررنا عليها ضيقنا دائرة الأدب وقصرناه على أقل عدد من الأدباء المعروفين .

ومع ذلك فمن الخير أن نلجأ إلى هذه الطريقة الطبعية لتعرُّف طبيعة الأدب وتبيُّن خواصه التى تؤلف تعريفه ؛ تلك هى أن نعمد إلى النصوص الأدبية المسلم بها ونتناولها بالنقد والموازنة بغيرها لعلنا نعرف ميزاتها واضحة فنصل من ذلك إلى ما نريد : متى يسمى النص أدباً ؟

الملاحظ أننا لانطلق هذه الكلمة على كل ما يطبع أو ينشر ، فلا نسمى التقاويم أدباً ، ولا الأخبار الجارية فى الصحف أدباً . وذلك لأننا نراها ثم لانعود إلى قراءتها فيما بعد ، والأدب يمتاز ، أول مايمتاز ، بأننا نعود إليه ونكرر قراءته إن لم يكن دائماً ففى أوقات مناسبة نجدنا فى حاجة إلى الرجوع إليه لنسد حاجة عقولنا وقلوبنا بما فيه من غذاء صالح لانمله مهما نقبل عليه . وهذه الخاصة الأدبية الأولى هى التى تسمى خلود الأدب (Permanence) وعليه فالأدب هو هذه النصوص الخالدة التى يقرؤها الناس مرة ومرة .

ولكن المسألة لاتزال فى حاجة إلى الإيضاح : فأى شىء يهب للكتاب و النص هذه القيمة الخالدة أو يسبغ عليه صفة الخلود فنكرر قراءته ؟

هل معنى ذلك أنه يحتوى مادة دائمة الفائدة والمتعة للناس ؟ إذا كان الأمر كذلك فإن كتب الطبيعة والكيمياء وجداول اللوغاريتمات والتواريخ تحتوى مادة خالدة النفع يعتمد عليها الناس كثيراً جداً فى الطب وشئون الحياة ، وهى مع ذلك ليست أدباً باتفاق ؛ فما الرأى ؟

الرأى أننا نقصد أن هذه الكتب أو النصوص هى فى نفسها باقية خالدة لايتحوَّل عنها القراء مهما تتقدم الأيام أو توضع كتب أخرى فى موضوعاتها . و بيان ذلك أن مثل هذه الكتب التى ذكرناها معرضة للنسيان والإعراض عنها

حينما تؤخذ نظرياتها وحقائقها ثم تدوّن فى كتب سواها بصورة أخرى ، وبذلك يمكن الاستغناء عن الأولى ، فتموت وإن بقيت الحقائق والنظريات . ومعنى ذلك أنه لا يعد من الأدب ذلك الكتاب القابل لأن يستبدل به غيره فى نفس موضوعه ثم يستغنى عنه بذلك الجديد ، ولكن القصة القيمة ، والقصيدة الرائعة والديوان الممتاز ؛ أى منها يبقى بنفسه مقروءاً لاتبليه الأيام مهما يظهر سواه فى نفس الفن أو الموضوع ، فلن يستغنى الناس بوصف المتنبى عن وصف البحترى ، ولا بالجاحظ عن عبدالحميد ، ولا برثاء شوقى عن رثاء حافظ : ذلك لأن لكل من هؤلاء الأدباء لوناً خاصاً فى آثاره ، وذوقاً ممتازاً فيما ينشىء لايشبه ما عند الآخر فلا غنى لنا بأحد عن صاحبه . ومثل هؤلاء الأدباء كمثل الأشربة أو الفواكه المختلفة ، كلها لذيذ الطعم ، ولا يسد أحدها مسد الآخر . وإذاً ، فهناك فرق بين الحقيقة الخالدة التى يحتويها الكتاب العلمى ، وبين القيمة الخالدة التى هى ميزة الكتاب أو النص الأدبى .

ومع ذلك فإن السؤال لايزال وارداً : ماذا يكسب الأثر الأدبى هذه الخاصة التى تجعله مقروءاً لذاته دائماً ؟

يقال : إن سبب ذلك أن الأثر الأدبى « يصوّر شخصية كاتبه » متى بدت فيه ميزاته النفسية . ومن الحق أن النص الأدبى العظيم صورة لشخصية صاحبه ، ولكن هل العكس صحيح ؟ هل كل كتاب معبر عن الشخصية يعد أدباً ؟ قد يكون فى هذا التعميم مبالغة . أليست كتب الفلسفة والرياضة تدل على جهد كاتبيها وأسلوبهم العقلى ، ومقدار فهمهم للحقائق ؟ ! على أننا إذا سلمنا أن الأثر الأدبى أدل من الأثر العلمى على شخصية منشئه ، وهذا حق لاشك فيه ، فكيف أتيح له ذلك ؟ كيف تكون القصيدة معبرة عن شخصية العالم ؟ إذا عرفنا العنصر الذى يستطيع به إنسان تصوير شخصيته فى حين أن الآخر — افقده هذا العنصر

لا يستطيع أن يبرزها فيما ينشىء .. نكون قد ظفرنا بهذه الميزة التى نعتمد عليها فى تحديد الأدب .

ويمكن معرفة ذلك حين نوازن بين هذه الكتب العلمية التى تشتمل على الحقائق الخالدة و بين القصيدة التى تخلو من هذه الحقائق ، وهى مع ذلك أدب خالد لا يبلى ، فما الخاصة التى نجدها فى القصيدة ولا نجدها فى الكتاب أو المقالة العلمية؟ تلك أن القصيدة تعتمد على العاطفة Emotion ولكن المقالة تعتمد على العقل Intellect وهنا نكون قد وقعنا على الميزة التى نبحث عنها منذ حين : فهى أن إثارة العواطف هى التى تكسب الأثر قيمة خالدة فيظفر من ذلك بصفته الأدبية .

ولكن كيف تكون العاطفة سبب خلود الآثار الأدبية ؟

من الغريب أن سبب ذلك هو سرعة زوال العاطفة — وهذا نوع من التناقض الوهمى — هذه السرعة هى التى تجعل الأثر الأدبى ذا قيمة خالدة .

ولتوضيح ذلك يجب أن نلحظ الفارق بين العلم والعاطفة من حيث صلتهما بالنفس الانسانية ، إذ كان باقياً وكانت هى زائلة ، فاذا ألممنا بمعارف عقلية أضفناها إلى معارفنا السابقة وقلما ننساها ، وعلى أية حال فلن نحرص على قراءتها ثانياً ، وكثيراً ما نهمل الكتب التى تحتويها . أما العاطفة الحزينة مثلا التى تثيرها فى نفسى مرثية أبى العلاء

غيرُ مُجدٍ فى مِلتى واعتقادى نَوحُ باكٍ ولا ترنُّم شَادِ

فانها تزول من نفسى بعد مدة ، ولا يبقى الحزن مسيطراً عليها أبدا ، ولكن هذه العاطفة الحزينة تتجدد فى نفسى كلما قرأت هذه القصيدة ، وقد تكون درجتها أقل عقب المرة الثانية أو الثالثة ، ومع هذا فهى متجددة على كل حال ، والأمر المهم أنه لا بد من قراءة هذه المرثية نفسها لبعث هذه العاطفة بالذات ، فان تسد مسدها مرثية أخرى لابن الرومى أو أبى تمام أو شوقى ، ذلك لأن عاطفة المعرى

من طرازخاص به فكانت مرثيته لازمة لى أبداً . وهذا معنى خلود الأدب وعدم الاستغناء عنه فاذا كان النص الأدبى من النوع المتوسط قرأته مرات ، وأما إذا كان من الأدب العظيم فانه يقرأ دائماً ولا يزيده التكرار إلا رواجاًوجمالا، ويصبح حاجة لازمة لكل إنسان . وهذا هو الشأن فى القرآن الكريم .

نستطيع أن نمثل لهذه المسألة بمثال حسى بسيط فهذا شراب البرتقال تلذه بما تحس من طعمه ورائحته ، وهذه اللذة تزول حتما بعد مدة ما ، فتجدك راجعاً إلى هذا الشراب للظفر بهذه اللذة نفسها ، ثم تزول فتجددها وهكذا . والمهم أن هذا الشراب لايغنيك عن شراب الليمون أو عن نوع آخر من البرتقال ، فالشراب خالد بالنسبة لمتعتك الخاصة .

و إتماماً لهذا الكلام السابق نقف عند هذه العاطفة الأدبية من حيث صلتها بخلود الأدب من وجه ، و بدلالتها على شخصية الأديب من وجه آخر ؛ فان اعتماد الأدب على العاطفة هو الذى يبعث فيه الخلود على مرّ العصور ، ولكنّ قيام العلم على العقل وحده لا يضمن لكتبه الخلود بهذا المعنى السابق . فاذا بحثت عن السر فى خلود هومير وجدته فى اعتماده على تصوير العواطف المختلفة ، ولا شك أن عواطف الناس من حب و بغض وحماسة وغيرة باقية لا تزول مهما يطرأ عليها من الاستحالة فى بواعثها وفى درجة قوتها أو ظواهرها فكان الكلام الذى يعبر عنها أو يبعثها خالداً مابقيت فى النفوس قوى الانفعال . . بخلاف العقل الإنسانى فانه سريع الرقى دائم التحول تمحو آثاره اللاحقة ما سبقها من معارف وتعفّى عليها منكرة ساخرة ؛ فهذه الآراء فى شكل الأرض ونظام الكواكب وتعليل الظواهر الطبيعية ، كم تغيرت وكم ذهب منها بين السخرية والنسيان ! لماذا نطمئن إلى الشعر الجاهلى ، ونعجب بالأدب العباسى والأندلسى ، ولا نمل قراءة البحترى والشريف الرضى والمتنبى وأبى العلاء ؟ لأننا نجد فى هذه الآثار أصول عواطفنا

ومظاهر شعورنا وأهواء نفوسنا فنطمئن اليها لقرب ما بيننا و بينها على بعد هذا الزمن السحيق ، فاذا ما وقفنا على آراء هـــذه العصور فى الهيئة والطبيعة والكيمياء سخرنا بأكثرها وأنكرناها . لماذا ؟ لأن العقل تقدم فغير هذه الآراء وأبعد المسافة بيننا و بين أصحابها فى التفكير .

أثر العاطفة فى الأدب حمل الأستاذ ديكوينسى De Quincey على أن يتخذها ميزة لنوع خاص من الأدب يسميه أدب القوة . وخلاصة ما ذهب اليه [١] أن الآثار الكتابية نوعان : نوع يرمى إلى المعرفة ونوع يقصد إلى القوة ، فالأول أدب الثقافة ، والثانى أدب القوة ، وظيفة الأول للتعليم ، ووظيفة الثانى التحريك ، الأول دفة السفينة والثانى شراعها ، الأول يعنى بالفهم والاستدلال ، والثانى يتصل بالإدراك الأسمى القائم على العواطف ولعله يريد بالنوع الأول مقالات الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والقانون من كل ما يرمى إلى تزويد القراء بالحقائق وشرح الشئون الاجتماعية . وسترى فيما يلى — وكما مر بك — أننا نستطيع إضافة هذا القسم إلى الأدب بمعناه العام . على أن من الباحثين من يناقش هذا الرأى من أساسه فيقول : إن العاطفة هى الميزة التى تفصل الأدب من سواه ، غاية ما فى الأمر أنها تختلف درجاتها باختلاف الآثار فتوجد قوية فى الشعر والوصف والقصة مثلا وتوجد ثانوية فى مثل هذه الموضوعات التى ترمى إلى التعليم وهى لا تخلو فى أصلها من آثار العاطفة ، وسيمر بك تفصيل فى ذلك .

وأما عن صلة العاطفة الأدبية بشخصية الأديب فمن المحقق أن الأدب — بسبب قيامه على العاطفة — يكون معبراً عن شخصية الأديب وأدل عليها من العلم الذى يعتمد على العقل ومدركاته [٢] . وذلك أن هناك فرقا — فى نفس الإنسان — بين

---

(١) نفس المرجع — Winchester — ص ٤٤ — ٤٥ هامش .

(٢) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص٩٧ وما بعدها ، طبعة ثانية .

القضايا العلمية التى تدركها العقول ، و بين الانفعالات التى تبعثها المؤثرات وتثيرها المشاهد . فالقضايا أو الحقائق العلمية ما دامت واضحة مفهومة تكون واحدة فى كل العقول لاتكاد تختلف فيها ، فهذه المسألة : الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين » حقيقة عقلية يدركها الناس كما هى دون أن يكون لأمزجتهم أثر فى صدقها ولا فى صورتها المدركة فى الأذهان ، وما العلم إلا مجموعة منسقة من مثل هذه القضية تأتلف معاً فتكون كتاباً أو بحثاً أو مقالا أو جملة تجارب تقرأ وتفهم على أنها معارف تنير العقل وتنمى الثقافة ، كما نقول عن القاهرة : « إنها على ضفة النيل الشرقية شمالى الفسطاط وغربى المقطم على خط العرض ٣٠ شمالا وسكانها نحو ألف ألف نسمة معظمهم مصريون ، وهى القصبة الرابعة لمصر منذ الفتح العربى ، بها آثار بديعة ومنشآت ضخمة ومعاهد علمية يؤمها الطلاب من بلاد الشرق العربى » . إلى نحو ذلك من المعارف التى تشخص القاهرة ولا تكاد تشخص كاتبها ، والتى تكاد تتشابه صورها فى مداركنا جميعاً . و إذا كان هناك اختلاف فى إدراكنا المسائل العلمية فان أكثر ما يكون ذلك فى الكم لا فى الكيف ، أى فى أن أحدنا يكون أكثر إحاطة من الآخر وأوفر منه معلومات . وقد يكون ذلك فى التعمق والإلمام بالعلل والبراهين ، ولو فرضنا رجلين تشابها فى قوة الإدراك وفى طريقة تفهم الأشياء التى تقع تحت حسهما كانت الصورة الذهنية لكل منهما تشبه الأخرى . فاذا كانت اللغة التى تعبر عن هذه الحقائق العلمية دقيقة فانها لاتدع مجالا لآثار شخصية الكاتب ومظاهرها إذ كانت لغة علمية تؤدى مسائل موضوعية لادخل للأمزجة ولا للعواطف فيها ، ثم تأخذ الأساليب العلمية فى الدقة حتى تقرب من لغة الرياضة وربما كانت لغة الجبر أدق اللغات وأصدقها تصويراً للحقائق العقلية الخالصة .

أما العواطف التي تنبعث فى الإنسان بتأثير الحوادث أو المشاهد فانها تختلف

باختلاف الأفراد ، فاذا كان من المسلم به أن الناس يتشابهون فى تصور القضايا العلمية ، فمن المسلم به أيضاً أنك لاتجد اثنين يتشابهان فى الحس أو الانفعال بالشىء الواحد — لاختلافهما فى المزاج والطبع — سواء أكان الاختلاف فى نوع العاطفة أو فى درجتها قوة وضعفاً . وهنا تتقدم الشخصية الفردية فتظهر نفسها فى التأثر و يتبع ذلك أن تتراءى واضحة فى التعبير عن هذا التأثر فينشأ من ذلك فن الأدب ، فالأهرام التى أشهدها ، أدرك حجومها وألوانها ومقاييسها والغاية منها كما يدركها جارى ، ولكنها قد تبعث فى نفسى إعجاباً و إكباراً لبناتها البارعين المقتدرين فى حين أنها تثير فى نفسه هو سخطاً وتبرماً بهؤلاء الفراعنة الذين أجهدوا المصريين وأعنتوهم فى إقامتها شامخة خالدة ، والمشيب فى رأى الفرزدق :

تفاريقُ شيبٍ فى الشبابِ لوامعٌ وما حسنُ ليلٍ ليسَ فيه نجومُ

ولكنه فى رأى الشريف الرضى سيف مُصلت على الرأس يبعث فى النفس قلقاً و يسلبها الأمنَ والطمأنينة :

غالطونى عن المشيبِ وقالوا : لا تُرَعْ أنه جِلاه حسام

قلتُ : ما أمنُ مَن على الرأسِ منهُ صارمُ الحدّ فى يدِ الأيام ؟!

وعلى ذلك كان الأدب لايؤدى الحقائق كما هى خالصة ، و إنما يؤديها مع تأثيرها فى نفوس الأدباء ، و بالصورة التى تكونها أمزجتهم وطريقة تناولهم الأشياء . ولما كانت شخصية المنشىء تتجلى فى الآثار التى تمتزج فيها الحقيقة بالعاطفة ، فان النتيجة الطبيعية لذلك أن يكون الأدب عبارة عن شخصية الأديب .

و إذا كان للانفعال النفسى هذه القيمة فى تمييز الأدب ، وخلوده ودلالته على شخصية كاتبه ، فقد نشأت عن ذلك مسألة الأدب وصلته بالحياة ، وهى مسألة قامت على ما قاله الأستاذ ماثيو أرنولد Matthew Arnold فى تعريف الشعر من أنه نقد الحياة « Criticism of life » وهو تعريف صحيح و إن كان غامضاً ،

فان الشعر هو نقد الشاعر للحياة ، وإنما يراد بذلك أن الشاعر يرى الحياة ويتخيلها متأثراً فى ذلك بما تثيره الحياة فى نفسه من عواطف ثم يحاول هو بما ينظم أن يثير فى نفوسنا عواطف مشابهة لما عنده . لكن هذا الوصف ليس وقفاً على الشعر وحده بل يتناول الأدب كله ، فهو نقد الحياة أى فهمها وتفسيرها للقراء ، ولا يتيسر لكاتب تفسير الحياة دون فهمها . وينتج من ذلك أن القدرة على إثارة العواطف هى التى جعلت الأدب تفسيراً للحياة ، وهذه الحياة لا تسير طوع الحقائق والأحوال الخارجية وحدها ، وإنما تخضع أكثر الأحيان لهذه الانفعالات النفسية التى تنتج الإرادة ، وتوجهها وتؤثر فى السلوك ، وتهذب الأخلاق وتحدد مجرى الحياة ، وإذا كان الأدب يعبر عن مشاعر الكاتب ثم يبعث مثلها فى نفس القارىء ، كان بالضرورة أصدق وأعمق سجل للحياة الأنسانية .

— ٤ —

ولكن ربما يقال : إن هذا التفسير لمعنى الأدب ضيق محدود لا يتناول جميع الآثار الأدبية ، فاذا صح أن كل ما يثير العواطف نسميه أدباً ، فهل من الصحيح أيضاً أن الأدب يجب أن يكون ذا قدرة على بعث العواطف وإلا خراج من هذا الباب ؟ نذكر التاريخ فهو أدب لاشك فى ذلك وإن كان لا يتجه إلى العواطف . وإنما قصده الأول تقرير الحقائق وتثقيف الأذهان ، على أن هناك فوق ذلك كتباً تاريخية لا تعرض لدرس أو نقد ، بل تقف عند سرد الحوادث وتسجيل الوقائع ، خالية من حرارة الشعور وبعث الحياة ، ومعنى ذلك أن هذا التفسير الذى ذكرناه لا يشمل الأدب بمعناه العام لكنه مقصور على هذا المعنى الخاص الذى يبدو فى مأثور الشعر والنثر أى فى نحو القصيدة الرائعة والوصف البديع والقصة الممتازة مما يعد من الفنون الرفيعة . وهو ما يسميه الغربيون

Belles - Lettres

ودفعاً لهذا الاعتراض يمكن أن يقال : إنه ليس من الضرورى أن تكون الميزة التى تكسب النص صفته الأدبية ، هى غرضه الأول ، وموضوعه الرئيسى فمتى استطاع الأثر اللغوى أن يبعث الانفعال كان أدباً سواء أكانت العواطف غايته الأساسية أم كانت ثانوية أتت ممتزجة بالحقائق لتخلع عليها روعة وتبعث فيها حياة وقوة . وعلى هذا نستطيع أن نفصل فى الكتابات التاريخية متى تكون أدباً ، فاذا وقفت عند سرد الحوادث الجافة دون فقه أو تعليل واتصال بينها كانت قصصاً مبعثرة أو مادة فجة للتاريخ يعوزها المؤرخ ذو الخيال العريض والذهن الثاقب والأسلوب الرائع ليصوغها تاريخاً يفيض بالحياة ، ويعيد الماضى كما كان عهوداً نشيطة مطردة الحركة والاثمار . وأما إذا كانت صورة لهذا الماضى الذى سار على قدمين من العقل المدبر والانفعال المحرك استطاعت أن تثير فى القراء عواطف شتى وكانت بلاشك من باب الآداب [1] وهكذا يجب أن يفهم التاريخ فليست مهمته وقفا على تزويدنا بالحقائق التى ذهبت فى طيات الأيام الغابرة ، بل يضيف إليها الشعوب السالفة ودوافعها النفسية ؛ فيجمع بين شيئين لابد منهما : التقرير الصادق الدقيق المنصف للأحداث والأعمال التى نهض بها رجال التاريخ إذ كان هذا هو الهدف الأول للثقافة التاريخية ، ثم بث هذه العواطف التى أدت إلى هذه الأحداث فكانت روحها وحياتها مادامت الحياة فى سيرها الدائم تهتدى بالعقل المفكر ، وتعتمد على الشعور الدافع ، والتاريخ ليس شيئا غير هذه الحياة السالفة ، ونتيجة ذلك الظفر بهذا الأدب التاريخى الذى يجمع بين العلم والفن ، ويقوم على الحقيقة والعاطفة .

على أن هذا المقياس يمكن اعتباره فى المنشئآت الأخرى ، فاذا كانت عقلية خالصة كالمنطق والهندسة خرجت من دائرة الأدب ، وإذا اتخذت من العاطفة

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ٨٩ طبعة أولى

وسيلة لنشر الحقائق وقوتها ، كالنقد ، والقانون ، دخلت ميدان الأدب وهو هذا النوع الذى يرمى إلى غرض ثقافى ، وإنما يظفر بمكانة فى الأدب لاتخاذه الشعور وسيلة لتحقيق غايته التعليمية ؛ وبذلك نجدنا أمام حالات ثلاث : فإذا كان الهدف الأول للأدب إثارة العواطف حصلنا على مأثور الشعر والنثر أو ما يدعى Belles- Letters ويسميه المعاصرون الأدب بمعناه الخالص . وإذا كانت الغاية إمداد العقل بالقضايا الفكرية الخالصة حصلنا على العلم Science

أما إذا كانت العواطف وسيلة لا غاية حصلنا على آثار أدبية تختلف فى درجتها الفنية باختلاف ما دخلها من الشعور والوجدان . على أن هذا القدر من الوجدان هو ما يحفظ لهذه الآثار قوتها وروعتها . وهنا يقول الأستاذ ديكو ينسى Oe Quincey [1] يصعب عملياً التمييز بين هذين النوعين من الأدب : أدب القوة وأدب المعرفة حسبما ذهب فى تقسيمه السابق الذكر ؛ لأن الفروق بينهما صعبة التمييز وبخاصة فى كتب التاريخ والسير والرحلات والمقالات المختلفة التى هى وسط بين العلم والأدب ؛ ولكن ما قيمة هذا التقسيم الذى لا ينفع فى مثل هذا المقام ؟ !

إذا صح هذا التحليل الذى أوجزناه اتضح لنا أن هناك فرقاً جوهرياً بين العلم والأدب تنقسم الآثار اللغوية — على أساسه — إلى قسمين : علمى وأدبى ، كما تنقسم الأعمال الإنسانية إلى قسمين فن عملى ، وفن جميل [2] . . . نعم إن هناك منشآت تجمع بين النوعين كالتاريخ والنقد — وقد مر القول فى ذلك — ولكنا نقيم الفرق هنا على ملاحظة الأدب الخالص والعلم الخالص ، وهو فرق ناشىء عن التباين بين الطبيعة العلمية والأدبية ، فالأولى تعنى بالاستقصاء

---

(١) راجع : Winchester ، ص ٥١ هامش .

(٢) راجع فى هذا الكتاب الفصل الخامس : الأدب بين العلم والفن .

والتحليل والتركيب وملاحظة الأشياء من حيث نشأتها ، ونموها ، وصلتها بغيرها ، وعناصرها ، كما يقف النباتى من النبات والأزهار شارحاً وظيفة كل جزء وصلته بغيره وأطوار حياته ونحو ذلك من الأبحاث العقلية والتجريبية التى تنتهى إلى قوانين علمية مقررة ، والثانية تلاحظ الأشياء من حيث صلتها بعواطف الانسان وما قد توقظ فى نفسه من شعور ووجدان . فالأزهار وجدت متناسقة جميلة ، وهى موجودة لمتعة الانسان ، والحياة تنتهى من حيث غايتها ، إلى ما فيها من جمال طبيعى أو صناعى ، والأدب يصور لنا هذا الجمال ويقدم لنا مسرات الحياة .

وليس العلماء هم الذين أفهمونا المعنى الصحيح للطبيعة وما يصلنا بها ، بل الأدباء هم الذين كشفوا لنا عن أسرارها ، وعرضوا علينا مفاتنها واستخرجوا ما فيها من معان عميقة ممتازة ، هى روحها الحى الناطق : —

فالوردُ فى سررُ الغصون مُفَتَّحٌ متقابل يثنى على الفتّاح
ضاحى الموا كب فى الرياض مميَّز دون الزهور بشوكة وسلاح
مَرَّ النسيم بصفحتيه مُقَبِّلا مَرَّ الشفاه على خدود ملاح (١)

وهذا يكفى للفرق بين طبيعة العالم وطبيعة الأديب من حيث تناولهما الأشياء فالأول يعنى بما بينهما من تشابه وتقابل ، وما تخضع له من نظريات وحقائق ، ولكن الثانى يتجه إلى ما يصلها بطبيعتنا الوجدانية من معان وأسرار ، والتعبير عن الأول تعبيراً دقيقاً هو العلم ، وعن الثانى هو الأدب ، وسيأتى القول المفصل فى هذه المسألة (٢) . على أن هذا التغاير بين الطبيعتين لا يعنى المنافاة المطلقة بين الفنون الكتابية أو الانفصال التام بين العلوم والآداب ، فقد رأيت أن هناك كتباً علمية لها صفة أدبية بما يداخلها من التوسل بالشعور ، كما أن الأدب الخالص لا يستطيع

(١) الشوقيات ، ج ٢ ص ٢٤ . (٢) فى الفصل الخامس من هذا الباب .

الحياة دون أن يتخذ من الحقائق العقلية أساساً قويماً ، وهكذا يتعاون العقل والشعور على تقويم الآثار الأدبية مهما تتفاوت عناصرها الداخلة فى تكوين كل فن كتابى قصيدة أو رسالة أو مقالة أو قصة أو خطابة ، وليس من اللازم أن معرفة العالم الطبيعى لقوانين الغروب تنقص من جماله النظرى إلا إذا انصرف الانتباه كله إلى هذه القوانين تاركا هذا المشهد مع فتنته الحسية و إيحائه العميق كما أنه من الحق على الانسان أن يحفظ التوازن ما استطاع بين موهبته الفكرية والوجدانية فيغذى كلا منهما بما يلائمها ويحفظها حية قوية تساير الأخرى وتساعدها فى تقويم حياته وانسجام مواهبه ، فلا يقوى العقل وحده و يذهب بنشاط الشعور الضرورى للحياة العلمية ، ولا تسيطر العاطفة على النفس فتدعها مشوهة الأخلاق سطحية التفكير .

أما بعد فليست العاطفة ، على خطرها وأصالتها فى هذا الفن الأدبى ، هى العنصر الفذ الذى يتألف منه المنثور والمنظوم ، فهناك الحقيقة التى تعد سند العاطفة وعونها على القوة والبقاء ، وهذا ما يفرق بين الأدب والموسيقى ، فالموسيقى الخالصة تتجه إلى إثارة العاطفة مباشرة دون وساطة الافكار ، أما الأدب فلا يستطيع أن يبعث الشعور القويم من غير معونة الأفكار القيمة التى تعد هيكلها العظمى وعماده الرفيع . وهذا فى غير الموسيقى الأدبية التى ترجع ألحانها إلى قطع من النثر أو النظم وتمثل الامتزاج بينها و بين الأدب . فهذه نوع آخر مركب يوحى إلى القلب والعقل و يمتع الآذان ، والأذهان[1] .

و إذا كانت الموسيقى الخالصة تعتمد على الألحان فى تغذية العواطف و إيقاظها مباشرة فيظهر أنها تختص بهذه الميزة من بين الفنون الجميلة حتى الرسم والتصوير[2] فانهما يعرضان علينا المظاهر الصماء التى ندرك جمالها بعقولنا وتتأثر بها مشاعرنا ،

---

(١) راجع Wenchester ص ٥٧ تجد بعض التفاصيل لهذه المسألة .

(٢) أريد بالتصوير عمل الصور أى التماثيل وهذا أولى عندى من تسميته النحت ترجمة لكلمة (Sculpture) .

كلاهما يدل على شيء لاتؤديه الموسيقى بما يعبران عن فكرة عقلية ، ويبرزان من صورة حسية ، والأدب — من حيث إنه فن جميل[1] — يجب أن يجمع إلى قضاياه العقلية عنايته الهامة بالعواطف وإن كانت وسيلتها فيه ليست مباشرة كالموسيقى الخالصة ، وتأثير الأدب فى العواطف يعتمد — كالرسم والتصوير — على عرض المناظر ، والصفات ، والأعمال عرضاً حسياً مجسما ليرى القارىء فى نصوصه من الألوان والأبعاد والمعانى مايراه إذا هو نظر إلى رسم أو تبصر فى تمثال والقوة التى يتم بها هذا العرض الحسى تدعى الخيال Imagination وهو كالعاطفة عنصر هام فى الأدب ، ولاسيما فى الفنون التى تقوى فيها العاطفة كقول البحترى فى رثاء المتوكل :

ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذْ ربعُ سربهُ ... وإذ ذُعِرتْ أطلاؤه وجآذِرُهْ

وإذ صِيحَ فيه بالرحيل فهَبَّكتْ ... على عَجَل أستارُه وستائرُهْ

وقد أشرنا إلى هذا العنصر العقلى الذى يعد فى بعض الفنون الأدبية كالتاريخ الغرض الأساسى إذ يعنينا منه الدقة والانصاف والصواب قبلما نعنى بجماله وتأثيره فاذا ماعرضنا لنقد الشعر ، وهو أسمى الصور الأدبية ، قدرنا الحقيقة المندرجة فى العاطفة وما يلابسهما كماً وكيفاً ، إذ لاقوة للعاطفة ولا خلود دون مايقوّمها من الأفكار السديدة . تجد ذلك فى دالية المعرى مثلا :

غيرُ مجدٍ فى ملّتى واعتقادى ... نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ

حيث يؤيد شعورَه الساخط بآرائه القويمة .

وأخيراً لايستطيع الناقد أن ينسى العبارة أو الأسلوب ، ويسميه بعض النقاد الصورة Form مقابلة للمادة المؤلفة من سائر العناصر فالعاطفة والخيال والفكرة يجب أن تؤدى بوسيلة لفظية ملائمة وهى وسيلة هامة لانقل مكانتها عن مادة الأدب أو معانيه لأن إيقاظ العواطف الأدبية يستند فى أكثر الأحوال على جمال

---

(١) الفصل الخامس من هذا الباب .

الأسلوب الذى تلبسه المعانى والأفكار إذ أن هذه — وإن كانت متوسطة تظفر بالروعة وقوة التأثير متى تكن عباراتها موسيقية جذابة ، ومن المقرر أن أسلوب التعبير مجال للعبقرية فى الأدب وفى سائر الفنون الجميلة من رسم وتصوير وموسيقى ورقص وغناء ونقش . والناقد الماهر يقدر البراعة الفنية فى الأداء ولا يراها مصادفة طارئة بل ثمرة الطبع الموهوب والذوق المصفى .

وخلاصة هذا البحث أن الأدب ينحل إلى هذه العناصر الأربعة :

(١) العاطفة Emotion وهى أهم العناصر وأقواها فى طبع الأدب بطابعه الفنى ، ولكن يجب أن نلاحظ أن الآثار الأدبية تختلف فى درجة اشتمالها على العاطفة ، فقد تكون غاية الأدب كما قد تكون وسيلة لنشر الحقائق .

(٢) الخيال Imagination وبدونه يكون من العسير إيقاظ العواطف فى أغلب الأحيان .

(٣) الفكرة Thought التى تعد أساساً فى كل الفنون عدا الموسيقى الخالصة ، والعنصر الرئيسى فى الفنون الإقناعية والتعليمية كالمحاضرات والمقالات ، وكتب النقد والتاريخ لأنها الغاية المقصودة .

(٤) الصورة Form وهى وإن لم تكن غاية فى نفسها ، لكنها وسيلة لأداء المعانى والتعبير عن الحقائق والمشاعر ، فاستحقت عناية خاصة ، وسنجد فى الفصل التالى بعض التفصيل التطبيقى لهذه الأربعة ، كما نتناولها بالدراسة النقدية أثناء هذا الكتاب .

وليلاحظ أن أى هذه العناصر لاينفرد وحده بالتأثير الأدبى المراد وإنما يستعين الباقى ، كما أن دراسة كل منها لاتعنى اعتباره منفصلاعن سائرها مادامت متصلة متبادلة التأثير كأعضاء الجسم إذا اعتل عضو تداعى له سائر الأعضاء .

وهنا تستطيع ، بعدما تعرفت بالأدب ، أن تعرفه بما تشاء من نحو قولك : إنه الكلام الذى يصور العقل والشعور تصويراً صادقاً . ولعل التعريف بالأدب خير من تعريفه .

الفصل الثانى

عناصر الأدب

نريد هنا أن ندرس عناصر الأدب درساً تطبيقياً لنتبين قيمتها وما بينها من صلات وتلازم ، ثم نتخذ من هذا الدرس وسيلة لتحليل القصيدة أو المقالة ، أو الإلمام الإجمالى بأى كتاب أدبى ، وسنجعل موضوع هذا الدرس قول المتنبى من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة الحمدانى :

رَمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتى ... فُؤادِى فى غِشاءٍ من نِبَال
فصرتُ إذا أصابتنى سِهام ... تكسرت النِصالُ على النِصالِ
وهانَ ، فما أبالى بالرزايا ... لأنى ما انتفعتُ بأن أبالى

فأول مانقف عنده عاطفة السخط والتبرم بهذا الدهر الذى ألح على الشاعر بالأرزاء فلم يترك فى نفسه موضوعاً لنازلة جديدة حتى تراكمت المصائب وصارت أكداساً ثقيلة ، انتهت به إلى يأس من الشفاء واستهانة بالأحداث ما دامت المبالاة غير مجدية خيراً ولا دافعة شقاء . وهذه العاطفة نشأت فى نفس المتنبى لأن أسباب الحياة قصرت به عن نيل مآربه وتحقيق أطماعه التى عرضته لآلام شتى وجعلت حياته رواية الجهود الخاسرة فى سبيل الآمال الضائعة .

ولعل المتنبى أراد أن يثير فى نفوس قرائه مثل هذه العاطفة الساخطة أو عاطفة الإشفاق عليه والرثاء له فماذا فعل ؟ حاول أن يشرح لنا ما حل بنفسه من الكوارث بهذه اللغة العادية التى نعرفها فى المعاجم والكتب العلمية فوجدها عاجزة عن تصوير ما بنفسه من غيظ وآلام ، فان غاية ما كان يقول : « كثرت

المصائب على حتى يئست من الراحة » . وهذه العبارة على قيمتها لاتوازى ماقاله هو فى أبياته ، وذلك أن اللغة المعروفة إنما وضعت فى الأصل للتعبير عن الحقائق والمسائل العقلية فاذا ما أراد الأديب اتخاذها لأداء الانفعالات النفسية شعر بأنها دون مافى نفسه من قوة العاطفة وحرارة الشعور ، لذلك يحاول اصطناع لغة أخرى تسمو إلى مستوى نفسه الثائرة وتستطيع تصوير مافيها من آثار القوة الوجدانية ، فيلجأ إلى الصور التى تجسم المعانى وتنقلها إلى درجة أرقى لتزداد قوة وجمالا ، يلجأ إلى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو المبالغة أو التخييل . وهكذا فعل أبو الطيب هنا ليستطيع تصوير آلامه وأسباب تبرمه ، فالدهر فى رأيه ليس شهوراً وأعواماً بل كائناً حياً ذا إرادة صارمة يكيد له فينزل به الأرزاء ، وهذه الأرزاء نبال كثرت فكان منها لفؤاده غشاء ، ويستمر فيصوِّر النوازل سهاماً تحل فلا تجد فيه موضعاً خاليا فتنكسر على ما سبقها إليه ، وأخيراً هان عليه الدهر أو إلحاحه فييأس ولا يبالى الرزايا لكثرتها وإلفها لديه ، على أن المبالاة لم تغن شيئاً . هذه اللغة المخترعة أو الوسيلة البيانية التى تأخذ عناصرها من الطبيعة والأشياء وتؤلفها بطرائق التشبيه والمجاز والكناية مثلا . هذه اللغة هى الخيال ، فهو العنصر الذى تلجأ إليه العاطفة لتعبر عن نفسها حين تعجز العبارات الأخرى دون تحقيق هذه الغاية الأدبية فاذا قرأ الناس هذه الأبيات تبينوا مقدار ما آدته النكبات حتى عادت لديه مألوفة وصارت حياته قصة الرزايا ، وربما صادفوا ، أو صادف بعضهم فيها لون نفسه فشارك المتنبى شعوره ، واتخذ السخط شرعته السائدة ، أو أشرب روحَه الحدبَ على أبى الطيب والإشفاق لحاله ، وبذا يتحقق ما قلناه فى الفصل السابق من أن غاية الأدب الخالص إثارة العواطف فى نفوس القراء أو السامعين .

فاذا وقفنا عند هذا السخط لنعرف سببَه وباعثَه فى نفس الشاعر كنا باحثين عن دواعى العاطفة ونصيب هذه الدواعى من الصواب والحقيقة ، أو بعبارة أخرى

كنا نتبين هذا العنصر العقلى ثالث العناصر التى نرجع إليها كلام المتنبى ، فاذا بالسبب أن الدهر ضاعف مصائبه حتى فاضت بها حيانه ، وتراكمت حتى لاموضع لجديد ، وألحت حتى يئس من النجاة فصار الشقاء قانون حياته ، وسنته المطردة . أليس فى ذلك مايبعث السخط والتشاؤم ؟

نعم لو تجاوز النقد الأدبى نص الأبيات وذهب إلى سيرة المتنبى فاحصاً محققاً فقد يرجع على الشاعر بالملامة ، وينقض ما ادعى وقرر ، ولكننا لسنا بعرض القول فى نحو ذلك الآن فلنتركه إلى موضعه من هذه الفصول .

وأخيراً نقف عند الأسلوب أو هذه العبارات التى أدت هذه المعانى وسجلتها هذا التسجيل الخالد ؛ فنقرر أن هذا الأسلوب من أليق الأساليب لبث هذه الشكاة . وذلك أن هذه العاطفة ، فوق قوتها ، أو لقوتها ، هى موسيقا نفسية ، ذات حركات وترجيعات كثيراً ما تبدو آثارها فى جسم الإنسان بسطاً وقبضاً واضطراباً فى تيارات الدم وحركات الأعضاء فكان لابد لهذه اللغة التى تؤديها أن تكون مثلها ذات أنغام مختلفة ومقاييس متباينة ، فكانت الكلام المنظوم من بحر الوافر ، وكان الوزن هو التعبير الطبعى عن هذه العاطفة الساخطة[1] وكثيراً ما يعجز النثر عن هذا التعبير العنيف السريع لأن طبيعته الأولى عقلية هادئة بطيئة[2] .

يظهر لنا من هذا التحليل العملى أن العاطفة أهم العناصر وأقواها تأثيراً فى سائرها إذ خلقت الخيال وضاعفت صوره ثم أحيت الحقائق وزادت روعتها ووضوحها ، واستوجبت هذه اللغة الموسيقية الجميلة ، ثم هذا التلازم بين هذه العناصر فليس يستغنى أحدها عن الباقى سواء فى وجوده ودخوله فن الأدب وفى قيمته ومكانته التى يكسبها بمعونة سواه .

ونذكر هنا مثالا آخر نثراً — رسالة عبد الحميد الكاتب إلى أهله وهو منهزم

---

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ٤٩ و ٥٦ طبعة ثانية .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٣ .

مع مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين : « أما بعد فان الله تعالى جعل الدُّنيا محفوفةً بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بِنَابها ذمها ساخطاً عليها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مُولِّية فملح عذبها وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فلدار نازحة ، والطير بارحة . وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً ، فان تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار أعدائنا نرجع إليكم بذل الإسار والذلُّ شرٌّ جار ، أسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لى ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان فانه رب العالمين وأرحم الراحمين[1] » .

فالعاطفة الشائعة فى هذه الرسالة هى الحسرة الناشئة عن العز الفائت والنحس اللاحق من جراء ما تغيرت الأحوال وتفرق الأهل والخلان ، وما قد يلقون من ذل الأسار . وهى عاطفة لاشك صادقة جعلت الرسالة تبعث فى النفوس الأسى والحزن لما نال الخليفة وكاتبه الأمين .

وقد استلزمت العاطفة ، كما قلنا ، هذا الخيال المصور ليبرزها واضحة قوية فالدنيا مزيج من الخير والشر ، تشبه الناقة تكون أليفة مواتية ثم تنقلب جامحة نافرة ويستمر فاذا الذل جار شرير ، وإذا به يتمنى السلامة واجتماع الشمل ولكن هيهات .

وأما الحقائق والأفكار فقد امتازت هنا بالصدق الخالص وحسن التنسيق المنطق ، وإن لم تكن مبتكرة جديدة ، فقد ألم بالوقائع وأيدها بالتجارب المقررة ثم أتبعها بشر ما يفرضه الخائف ، وخير ما يتمناه المشرَّد الطريد ، واستطاع بهذه الحقائق أن يهيج فى النفوس شعوراً صادقاً عميقاً . ولعل هذه العناصر المعنوية لاتؤدى بأحسن من هذه العبارات الواضحة الجميلة . نعم إن هذا الأسلوب خال من وزن الشعر ولكنه لم يخل من الموسيقا اللفظية التى هى صدى لما فى النفس

(١) رسائل البلغاء ، ص ١٧١ .

من أسى وأحزان ، تحسها فى حسن التقسيم ، والسجع ، والمقابلة ، وحسن الختام[١] .

* * *

هذا النموذج الذى أجملناه فى تحليل الشعر والنثر يمكن الانتفاع به حين نحاول تحليل قصيدة أو مقال أو قصة أو كتاب ، وسنتخذ رثاء البحترى للمتوكل[٢] مثلا نحلله ليقاس عليه غيره من القصيد .

هناك مسائل يجب الالمام بها أولا ، لأنها تتصل بالقصيدة اتصالا مباشراً وتشرح كثيراً من معانيها ، وتلقى ضوءاً على جوانب أشار إليها البحترى دون أن يفصلها وهذه المسائل تصور بيئة القصيدة أو عناصرها الخارجية :

أولها : ولاية العهد فى الدولة العباسية وما كان لها من صلة بمصرع الخليفة المتوكل على الله عاشر الخلفاء العباسيين ، فان هذا الخليفة قد عهد من بعده لأولاده الثلاثة المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد ، وقسم بينهم البلاد الاسلامية[٣] وحدث أن انحرف الخليفة عن المنتصر بايعاز وزيره عبد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان ، وحاول الفتكَ به أو إقصاءه عن شؤون الملك ، فاتفق المنتصر مع زعماء الأتراك وفتكوا بالخليفة نفسه ، نجد ذلك فى الأبيات ١٣ — ٢٦ ولا سيما قوله :

وهل أرتجى أن يَطلبَ الدم واترٌ ... يَدَ الدهر ، والموتورُ بالدم واترُهْ ؟
أكانَ ولىُّ العهدِ أضمر غَدرةً ... فَمِن عجَبٍ أن وُلِّىَ العهدَ غادرُه

ثانيها : العنصر التركى وما كان له من سلطان على الخلافة والخلفاء ، وكان المعتصم ثامن هؤلاء الخلفاء قد استكثر من غلمان الأتراك واتخذ منهم جيشاً يستعين به على الجيش العربى ، فزاد نفوذهم على عهد المتوكل حتى برم بهم و بقوادهم الكبار وحاول التخلص منهم ، فمالوا إلى المنتصر وكانوا سندَه فى قتل أبيه[٤] .

---

(١) راجع فى الكلام على الوزن النثرى كتاب الأسلوب لأحمد الشايب ص ٤٨ — ٤٩ طبعة ثانية .

(٢) ديوان البحترى : جـ ١ ، ص ٢١٥ ، طبعة هندية .

(٣) و (٤) راجع محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية لمؤلفه محمد الخضرى ، سيرة المعتصم والمتوكل .

ثالثها : ما كان من مكانة الخلافة الاسلامية ، وقصر الخلافة ، ثم هذه الصلة الوثيقة التى كانت بين المتوكل ووزيره ونديمه الفتح بن خاقان الذى قتل معه ، ثم البحترى الذى شهد هذا المصرع ولكنه نجا منه ، وذلك كله واضح صريح فى أبيات القصيدة لايحتاج إلى تنبيه .

بعد ذلك ننتقل إلى متن القصيدة للالمام بعناصرها الداخلية من عاطفة وخيال وفكرة وعبارة .

(١) العاطفة العامة هى الحزن الذى سيطر على نفس الشاعر فبثه فى مرثيته ، ولكن هذا الحزن العام اتخذ ألواناً مختلفة ، أوسعها حسرة على قصر تخرب بعد عمران وسكن أجلوا عنه ، وخلافة جليلة انتهكت حرماتها ، وخليفة لم تنفعه جنوده وغاب عنه أعوانه ، وعجز جلساؤه وندماؤه ، وعجب لغدر الابن بأبيه واستعانة الأجنبى على القريب ، وسخط على هؤلاء المعتدين ، ورغبة ألا ينعم أحدهم بتراث الخليفة وأن أمور الخلافة تؤول إلى عاقل من بنيه . فالعاطفة هنا أشبه بالنغمة العامة التى تسمعها من الأدوات الموسيقية معاً مهما تختلف الألحان بين الأدوات منفردة .

(٢) وقد امتاز البحترى فى هذه القصيدة بحسن الخيال و بخاصة فى مطلعها ، إذ عرض المشاهد الأليمة التى أعقبت مصرع الخليفة واتخذ منها وسيلة لتصوير الفاجعة و بث الحسرة والأسى فوفق إلى حد كبير سالكا فى ذلك المذهب التحليلى معتمداً على فنون بيانية قوية من تشبيه واستعارة ومقابلة حتى قال :

ولم أنسَ وحشَ القصر إذ رِيع سربه ... وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذُره
وإذ صِيح فيه بالرحيل فهُتِّكَتْ ... على عَجَلٍ أستارُه وستائره

ثم عُنى بعرض الصور التى تلائم هذه الحادثة ، فالريح مُجدة فى تعفية القصر وقد ذُعِر ساكنه ، وهُتِّكت أستارُه وذَهبت طلاقة الخلافة و بشاشتها ، وهذه

السيوف تتقاضى الميت حشاشته والموتُ حُمرٌ أظافره إلى آخر ماصنع من خيال .

(٣) وأما الأفكار التى سند بها العاطفة فتخلص فى عدوان الابن على أبيه ، واتهاره به مع الأجنبى وذهاب روعة الخلافة وبهجة العصر وعدم غناء الجيوش والحجاب وأن الخلافة يجب أن تستقر فى رجل حكيم من نسل الخليفة المقتول .

هذه هى العناصر التى تنحل إليها القصيدة ، وللنقد الأدبى ملاحظات على كل منها ليس هنا موضع إيرادها فلنتركها إلى مكانها من الفصول الآتية .

كذلك إذا كان الذى أمامنا كتاب ، فاننا نسلك فى تحليله مسلكا يشبه هذا مع ملاحظة طبيعة الموضوع الذى يتناوله . فلو كان كتاب « فى الأدب الجاهلى » للأستاذ طه حسين ، رأيت أن أهم ما فيه الآراء والنظريات التى بسطها المؤلف من بيان مناهج الدراسة الأدبية ونظرية انتحال الشعر الجاهلى ومقاييس نقده ، وتأخر النثر فى الحياة عن الشعر والانتهاء إلى أن التاريخ اليقينى للأدب العربى يبدأ بالقرآن الكريم . ويلى ذلك هذا الأسلوب الواضح القوى الجميل الذى عرض به آراءه عرضاً رائعاً لا يجارى فيه ، ثم شعور الحماسة لمذهبه التى ظهرت بمظهر التحدى للمحافظين والازدراء بتحرجهم والاعتزاز بالنفس ، وأخيراً لم يخل الكتاب من صور خيالية جميلة تلائم هذه العاطفة .

وأما قيمة هذه الآراء من الناحية العلمية الموضوعية فالكلام فيها يطول ، وليس هنا مجال ذلك ، فليطلبها الباحث فى مظانها أو ليجد فى دراسة هذه المسائل لعله يحسن تقويمها والانتهاء فيها إلى رأى مقبول .

الفصل الثالث

أقسام الأدب

عرف الجاهليون الشعر ولاحظوا مايختص به من تأثير قوى ، عمدته أسلوبه الموسيقى وانفعاله الصادق ، فاعتبروه قسما خاصاً من الكلام أو الأدب . ثم عرفوا مع ذلك أو بعده الخطابة ولاحظوا اعتمادها على هيئة الخطيب الجسيمة فوق حجتها الدامغة ، وعاطفتها الصادقة ، وعبارتها القوية ، فعدوها قسما خاصاً آخر من الأدب له مواقفه ورجاله ، و بين هذين وجد نوع آخر من الكلام لايلتزم موسيقا الشعر ولا نظام الخطابة ، يعتمد على العقل الخالص أو يشرك معه الوجدان يتناول شئون الحياة الاجتماعية ويجمع القصص والأمثال والحكم ، فشعروا بأنه نوع ثالث غير ذينك القسمين ، وهكذا وجد فى العصر الجاهلى هذه الأقسام الثلاثة : الشعر ، والخطابة ، والحديث . وطبعاً لم يكن الجاهليون يفرقون بينها بهذه الحدود المنطقية ولا الفروق الاصطلاحية الحديثة ، ومع هذا فقد كان التقسيم فيما يظهر ، قائما على ملاحظات ليست أقل فى دقتها عن هذه التعاريف وربما كانت أساساً لها وخيرَ ما فيها ، حتى رأينا بعض المعاصرين لايكتفى بتقسيم الكلام إلى شعر ونثر ، وانما يقسمه الى شعر وخطابة وكتابة[1] ملاحظاً طبيعة هذه الفنون وأساليبها وما يلابسها من نظام ، والكتابة هى الحديث عند الجاهليين أو مايقرب منه .

فلما جاء القرآن الكريم وكان ممتازاً بفواصله الجديدة ، وأسلوبه القوى ، و بلاغته الخارقة ، وتأثيره الرائع ، دهش له العرب ، واضطربوا أمامه : كيف يصفونه ، وماذا يقولون فيه وقد خالف المألوف لهم من الفنون القولية ، فقالوا مرة

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص ٦٠ — ٦١ .

إنه شعر وأخرى سحر ، وثالثة أساطير الأولين ، إلى غير ذلك مما حكاه القرآن نفسه . وذلك أنهم وجدوا فيه فناً جديداً لا هو شعر لعدم التزامه الوزن والقافية ولا يلتزم طريقة الكهان ولا أساليب المتكلمين فيكون خطابة ، وهو بعد ذلك فوق مستوى قصصهم وأحاديثهم ، وأخيراً عرفوا له الاعجاز فسكتوا يائسين ولم يقلدوه فبقى فناً فذا ممتازا ، وان كان الشعور العام أنه نثر أو كلام من باب المنثور على أن ميزة القرآن فى فواصله ، وابتداءاته ، وتقسيمه الموسيقى ، وتنوع فنونه ، ووحدته العامة المنتهية بالتوحيد — حملت بعض الباحثين أن يعتبروا القرآن الكريم قسما وحده من الكلام غير النظم والنثر ، بما فيه الكتابة والخطابة[1] ومعنى ذلك أن يكون العرب إبان ظهور الاسلام قد عرفوا الشعر والخطابة والحديث والقرآن الكريم . وكل منها له خواصه وطبيعته التى يدركونها بعقولهم وأذواقهم وان لم يدونوا ذلك فى نظام علمى ولا حدود منطقية .

ثم ظهرت الكتابة ، وكان التدوين والتأليف لقيد ثمرات القرائح والعقول وتنوع ذلك ، فكانت منه الرسائل ، والمقامات ، والفصول ، والكتب العلمية ، والمترجمات الفارسية واليونانية والهندية ، ولكنها كانت جميعاً من باب واحد هو الكلام المنثور والفن الذى صار منذ القرن الثانى باباً هاماً جدا من الأدب وسجلا حافلا بما أخرجت الحضارة الاسلامية من علوم ، وفنون ، وآداب وفلسفات.

وبهذا ازدهر النثر وكملت الأنواع الرئيسية للكلام العربى . وليس من شك فى أنهم لاحظوا الفروق بين هذه الفنون النثرية ووضعوا لها القوانين وألفوا فيها الكتب القيمة . فكلام يتناول الفلسفة والكيمياء والرياضة والطبيعة له كتبه ورجاله وموضوعاته وطبيعته العقلية الخالصة وعباراته العلمية الدقيقة ، وكلام آخر يعنى بتصوير العقل والشعور ويقصد الى التأثير والإفادة فتكون منه الرسائل

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص ٣٠ — ٣٢ .

والمقامات ، والقصص ؛ وكتب النقد ، وله رجاله وطبيعته الفنية وعباراته الأدبية الجميلة ، كما لاحظوا الفرق بين الفنون النثرية والأدبية من مقامات ، وقصة ورسالة ، وتأليف .

وكان هذا التقسيم طبيعيا ومعقولا لولا أنهم عادوا فوقفوا عند الوزن والقافية — مجاراة للعروضيين — واتخذوا منهما أساساً لتقسيم الكلام الى نظم ونثر . ودخلت الكتابة ، والخطابة ، والمقامة ، والمناظرة ، فى هذا القسم الثانى طوعا لهذه الظاهرة اللفظية [1] على أنهم لو دققوا فى الظواهر اللفظية لكل فن من فنون النثر ، واستخدموها فى التمييز بينها لبقيت لهم قسمتهم ونجوا من تحكم العروضيين . ومهما يكن من شىء فقد بقى هذا النظام إلى العصر الحالى ، وانقسم الأدب الى منثور ومنظوم .

فلما كانت النهضة الحديثة فى مصر والشرق العربى ، ونشطت دراسة النقد الأدبى ، وظهر الباحثون على مذاهب الغربيين فى فهم الأدب وتقسيمه حاولوا أن يذهبوا فى تقسيم الأدب مذهبا أو مذاهب حديثة ، ولكنها لا تخرج فى حقيقتها عما رأى الأقدمون من أقسام . لاحظ المعاصرون فى تقسيمهم عناصر الأدب التى تناولناها فى الفصلين السابقين ، كما لاحظوا الفروق اللفظية التى تلزم فنا من الفنون ، وأخيرا الموضوعات التى يتناولها كل قسم من الأقسام .

١ — لاحظوا أن هناك كلاما يتعمد فى تكوينه على الخيال الجميل ويقصد الى إثارة العواطف ، وامتاع النفوس كالقصيدة الجيدة والرسالة البديعة ، والوصف الرائع ، والخطابة المؤثرة فسموه الأدب بمعناه الخاص اذا كان فنا جميلا كالرسم والتصوير والموسيقا ويقابل Belles-Lettres عند الغربيين . وهناك كلام آخر

(١) راجع نقد الشعر ، ونقد النثر لقدامة ، ومقدمة العمدة لابن رشيق . ومقدمة ابن خلدون : فصل فى انقسام الكلام إلى فنى : النظم والنثر .

يغلب عليه العنصر العقلى والحقائق العلمية ويرمى الى تثقيف الانسان وتزويده بالمسائل والآراء أيا كان موضوعها ، كالتاريخ والجغرافيا والقانون والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية ، فسموه مع سابقه أدبا بالمعنى العام وهذا ما يدل عليه الغربيون أحيانا بكلمة Literature . والأصل أن هذه الكلمة الأخيرة لها عند الفرنجة معنيان ، المعنى الخاص السابق ، وهذا المعنى العام أيضاً ، فاذا كنا نضع آثار الشعراء ، والكتاب ، والخطباء والقصاص فى القسم الأول فاننا نضعهم ونضع معهم العلماء والفلاسفة فى القسم الثانى . وبهذا المعنى أنشىء القسم الأدبى قبلا بالتعليم الثانوى المصرى وبمدرسة المعلمين العليا . ثم أنشئت كلية الآداب فى الجامعة المصرية حديثاً . وقد جاء فى تقرير العميد — الأستاذ طه حسين — المرفوع إلى لجنة سياسة التعليم العامة مانصه : «كلية الآداب كما يسميها الفرنسيون أو كلية الفلسفة كما يسميها الألمان أو كلية الفنون كما يسميها الانجليز قسم من أقسام الجامعة يعنى بدراسة أنواع من العلم متشابهة فيما بينها تكون مجموعة يمكن أن تكون ذات وحدة حقيقية ، فهى تبحث فى حقيقة الأمر عن الناحية المعنوية العقلية لحياة الانسان : تبحث عن العقل وقوانينه فى المعرفة والتفكير والاستنباط فتكون فلسفة ، وتبحث عن مظاهر الحسن والعاطفة فى اللغة فتكون أدباً ، وتبحث عن الصلة بين قديم الحياة وجديدها فتكون تاريخاً ، وتبحث عن العلاقات المكانية بين الجماعات فتكون الجغرافيا ، وهى على هذا النحو تتناول وجوهاً من حياة الانسان متشابهة فى مناهج البحث وطرق التعبير والأداء فتكون هذه العلوم والفنون الكثيرة التى اتفقت نظم التعليم على أن تجمعها فى هذا القسم من الجامعة الذى يسمى كلية الآداب . »

ولكن الأستاذ أحمد ضيف [1] رأى منذ حين أن كلمة « أدب

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٢١ ثم بلاغة العرب فى الأندلس حيث يضع كلمة بلاغة مكان كلمة أدب .

اختلفت عليها المعانى فى اللغة العربية فزادتها إبهاما ، وصارت لاتصلح للدلالة بدقة على «الكلام الذى يدعو الى الاعجاب من حيث الافتنان فى الصناعة» وجرى على أن يسمى ذلك بلاغة فهى عنده « الكلام الفنى الممتع » أو هى مايسميه المعاصرون الأدب بمعناه الخاص ونحن وان كنا نعرف أنه لامشاحة فى الاصطلاح لا نرى ضرورة لهذا التغيير فلتبق كلمة البلاغة كما انتهت اليه فى وضعها لتدل على هذا العلم الأدبى المعروف ولتبق كلمة الأدب دالة على النصوص التى تصور العقل والشعور ، ثم يكون الأدب خاصا وعاما أو كما سماه ديكونسى أدب القوة وأدب المعرفة كما أسلفنا . على أن البلاغة إذا كانت فنا أى كلاما بليغا مطابقا لمقتضى الحال[1] فلا زلنا نلحظ فرقا بينها و بين الادب ، فالبلاغة لابدأن تراعى المخاطبين وما يلابسهم من أحوال لتكون فى مستوى كفاياتهم ، ولكن الاصل فى الادب صدق التعبير عن نفس الاديب ، والاجادة فى تصوير شخصيته .

٢ — ثم نظروا إلى موضوع الأدب فقسموه على أساسه قسمين إنشائى ووصفى[2] وهم هنا أيضا لاينسون هذه العناصر التى مر ذكرها والتى يبقى سلطانها نافذا فى هذا التقسيم . فاذا كان الكلام معبراً عن الطبيعة تعبيرا مباشرا كان هو الادب الانشائى وذلك عندما يصور العواطف الانسانية من فرح وحزن وحب و بغض وحماسة واعجاب وازدراء فتثير أمثالها فى نفوس القراء والسامعين أو عندما يصف مشاهد الطبيعة وآثارها من رعد و برق وأمطار وجبال ورُبى ووهاد وأزهار وأشجار وزلازل و براكين وبحار وأنهار ليفسرها و يظهر ما فيها من أسباب الجمال وأسرار المعانى . وهذا النوع كما ترى ذاتى (Subjective) لأنه معرض لشخصية الانسان حيث تراها أو نرى الحياة كما تفسرها وتلونها .

---

(١) راجع فى ذلك كتاب الأسلوب لأحمد الشايب ، ص ١٠ و ١٩ الطبعة الثانية .

(٢) طه حسين : فى الأدب الجاهلى ، ص ٣٦ طبعة ثالثة .

ونستطيع أن نقول هنا : إن موضوع الأدب الانشائى هو الطبيعة والانسان يتخذهما الشاعر والناثر موضوعا للتخييل والتفسير .

وأما حينما ينتظر الكاتب هؤلاء الأدباء المنشئين ليفرغوا من كلامهم ، ثم ينظر فيه ليرى رأيه شارحا ناقدا فهذا هو الأدب الوصفى . ومعنى هذا أن الأدب الوصفى لايتناول الطبيعة والانسان مباشرة ، وإنما يراهما فيما كتب الكتاب ويتخذ من هذه القصائد والخطب والرسائل والقصص موضوعا لآرائه الحسنة أو السيئة ، ولتعليل مايرى ويحكم . وهذا النوع الثانى يكاد يكون موضوعيا Objective لأنه مقيد بماقال الآخرون وإن لم يخل من حكم الذوق وآثار الشخصية ومن محاولة التأثير فى القراء أو السامعين لعلهم يرون مايرى الناقد .

(٣) ثم يعودون فيقسمون الأدب الانشائى إلى شعر ونثر ، والوصفى الى نقد أدبى وتاريخ أدب ، معتمدين فى هذا التقسيم أيضاً على هذه العناصر الأدبية ومقدار ما يحويها منها كل قسم . فالشعر يمتاز من النثر بميزات شتى منها لغته الموسيقية الممتازة بالوزن والقافية ، واعتماده على العاطفة أكثر من النثر ، ولذلك كانت مظاهر الخيال فيه كثيرة ، وإذا كان الشعر يرمى فى الأصل والأكثر إلى التأثير وإثارة الوجدان فان النثر فى الأكثر والأصل يرمى إلى الافادة وتغذية العقل[1] وهكذا لكل منهما خواصه الغالبة وإن لم يكن بينهما منافاة مطلقة ، وإن تقدم الشعر على النثر فى الوجود . كذلك الأدب الوصفى يقف أحيانا عند الشعر والنثر الإنشائيين فيتبين مافيهما من مظاهر القوة والجمال أو الضعف والعيب ، ويعلل مايرى معتمداً على ذوق الناقد المصفى ودراسته العميقة الواسعة . فيكون من ذلك النقد الأدبى تعد نشأته فى جميع البيئات ظاهرة طبيعية مادام هناك أدب ينشأ ، وأناس يقرءونه أو يستمعون إليه فيؤثر فى نفوسهم آثارا مختلفة هى

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ٤٦ طبعة ثانية .

آساس الأحكام النقدية . فاذا ما حرص على هذا النقد وأخذ يضيف إليه شرح الأسباب التى أكسبت الأدب صفاته الخاصة فى كل عصر ، ويلم بالمؤثرات العلمية والفنية والطبعية التى أثرت فى نصوصه فحدث لها تغير واستحالة فى البيئات المختلفة ، ثم يعنى بحياة وآثار النابهين من الأدباء فى هذه العصور ، كان من ذلك تاريخ الأدب . وهو غلى حداثته يعد من أهم الأبحاث التى تعنى بها الأمم الراقية إذ كان قصة الحياة فى أروع صورها وأعمق حالاتها .

(٤) وأخيراً نرى الشعر قصصاً وغناء وتمثيلا ، والغناءُ مدح وهجاء ، ووصف ورثاء ونسيب وحماسة إلى غير ذلك ، والتمثيل فكاهى وحزين . ثم نرى النثر خطابة ومقالة وقصة ومقامة ورسالة ومناظرة ومحاضرة إلى غير ذلك مما تجده فى كتب البلاغة[1] والنقد الأدبى ، وفى النصوص الأدبية المنتشرة .

* * *

وواضح أن الغاية من كثرة الأقسام تسهيل الدرس وتيسير التعليم للناشئين ثم الاشارة إلى ما لكل قسم من خواص فى ألفاظه ومعانيه وموضوعاته وغايته . وأنت إذا أنعمت النظر فى كل ذلك أرجعته إلى مقدار ما يظفر به كل قسم من العناصر الأدبية السالفة الذكر ، وهذا المقدار تحدده الغاية من كل فن منها . وسيمر بك فى الفصول الآتية إيضاح كثير مما أجملناه هنا فلتنتظر .

---

(١) نفس المرجع ، ٧٣ — ٩٦ .

الفصل الرابع

علوم الأدب

أول ما يجب أن نلتفت إليه هنا هذا الفرق بين الأدب وعلوم الأدب ، فالأدب كما رأينا قبلا هو الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة ، وهو بهذا المعنى فن جميل يشبه الموسيقا والرسم والتصوير كما يمر بك فى الفصل التالى . وأما علوم الأدب فان المقصود منها هذه القواعد والمعارف التى يستعينها الطالب لفهم الأدب وتذوقه ، والقدرة على إنشائه ، كاللغة والنحو والبلاغة ونحوها ، وهى علوم ذات قوانين نظرية تدخل فى فصول منسقة ، وتواضع فيها الكتب المختلفة . وبذلك نعرف كيف كان القدماء لايحرصون على الدقة حينما يطلقون لفظ الآداب على شىء من هذه العلوم النظرية كما فعل السكاكى فى مقدمة كتابه مفتاح العلوم حيث يقول : « وقد ضمنت كتابى هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهى عدة أنواع متآخذة . . . وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، القسم الثانى فى علم النحو ، القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان »[1] فأطلق كلمة الأدب على هذه العلوم وإن سماها أحياناً علم الأدب ، وكما فعل ابن خلدون فى مقدمته فى فصل علم الأدب وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

كذلك كانوا يخلطون بين الأدباء وعلماء الأدب من النحويين واللغويين ، والبلاغيين والنسابين ؛ فهذا ابن الأنبارى فى كتابه « نزهة الالباء فى طبقات الأدباء يترجم للنحويين والأدباء معاً ، ويقول عن الكلبى : « وأما هشام بن محمد

---

(١) المفتاح ، ص ٢ — ٣ .

ابن السائب الكلبي فانه كان عالماً بالنسب وهو أحد علوم الأدب ، فلهذا ذكرناه في جملة الأدباء » وكذلك فعل ياقوت في مقدمة معجم الأباء فقد قال فيها : « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلى من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوب المنسوبة والمعينة وكل من صنف في الأدب تصنيفاً أو جمع في فنه تأليفا »[1] . فالأدب عند هؤلاء كلمة تطلق على علوم الأدب ، والأديب سمة لعارفي هذه العلوم والمؤلفين فيها . ويقول الجرجاني في كتاب التعريفات : « الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ . » فزاد معنى الكلمة اتساعا ، وشمل جميع القواعد النظرية التي تنظم الحياة الاجتماعية في أية نواحيها .

وقد رأينا في الفصل الأول أن كلمة الأدب تناولت منذ القرن الأول أطرافاً من هذه العلوم بداءة نشأتها ، عند ظهور مسائلها اليسيرة ، تكملة لفهم النصوص الأدبية ونقدها . ولما تقدمت الأيام وأخذت هذه العلوم في النضج والاستقلال انفصلت عن الأدب وتكونت علوماً مستقلة بذاتها ليست من الأدب وإن كانت لازمة للأديب المنشىء والواصف على حد سواء .

استقلت اللغة في المعاجم ، واستقل النحو في كتبه ، وسار النقد والبلاغة معاً شوطاً بعيداً ثم أخذا ينفصلان ، وكلما وضع علم من علوم هذه اللغة العربية انفصل عن الأدب في مسائله واتصل به من حيث أنه وسيلة ضرورية له ، ودخل هذه المجموعة التي تسمى حينا علم الأدب أو علومه أو علوم اللغة العربية ، وبقيت هذه التسمية إلى الآن .

وقد حاول السابقون أن يعرفوا الأدب بهذا المعنى العلمي — أي علوم

---

(١) ج ١ ، مقدمة .

الأدب — فقالوا فى ذلك أقوالا شتى ، منها ماسبق للجرجانى فى كتاب التعريفات ، ومنها قولهم : علم يحترز به عن الخطأ فى كلام العرب لفظاً وخطاً ، وقولهم : علم يتعرف منه التفاهم عما فى الضمائر بأدلة الألفاظ والكتابة ، وقول ابن خلدون : حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف . وهى تعاريف كما ترى تتناول العلوم جملة ، وتشير إلى أنها وسائل للتعبير الصحيح .

بقى أن نعرف هذه العلوم ، ما هى ؟ وكيف كانوا يقسمونها :

بعد ما تكاثرت وامتاز كل عن الباقى ، كما هو مقرر فى تاريخ العلوم العربية ، تجد ابن الأنبارى فى طبقات الأدباء يعدها ثمانية : اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والعروض ، والقوافى ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم ، ثم يلحق بهذه الثمانية علمى الجدل فى النحو وأصول النحو . ولا نعرف كيف تكون صنعة الشعر علماً من العلوم . ذلك من باب التساهل فى التعبير أو لعدم التفرقة الدقيقة عندهم بين العلم والفن . ثم يأتى الشريف الجرجانى فيقسمها أيضا عشر علماً و يذهب فى ذلك مذهباً منطقياً ، و يسميها علم العربية[1] ويقول : منها أصول ومنها فروع «أما الأصول فالبحث فيها إما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها فعلم اللغة ، ومن حيث صورها وهيآتها فعلم الصرف ، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالاصالة والفرعية فعلم الاشتقاق . و إما عن المركبات على الاطلاق فإما باعتبار هيآتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو ، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعانى ، أو باعتبار كيفية تلك الإفادة فى مراتب الوضوح فعلم البيان . و إما عن المركبات الموزونة فأما من حيث وزنها فعلم العروض أو من حيث أواخر أبياتها فعلم القافية . . وأما الفروع فالبحث فيها إما أن يتعلق بنقوش الكتابة فعلم الخط أو يختص بالمنظوم فالعلم المسمى بقرض الشعر (؟ !) أو منثور فعلم

(١) راجع فى ذلك أيضا حاشية الخضرى على ابن عقيل ، ج ١ ، ص ١٣ طبعة بولاق .

إنشاء النثر من الخطب والرسائل ، أو لا يختص بشيء منها فعلم المحاضرات ، ومنه التاريخ »[١] . وبعضهم جعل فنون الأدب خمسة عشر ، فطرح علم المحاضرات ، وزاد علم البديع ، وعلم الأمثال ، وعلم الدواوين وعلم الاستيفاء[٢] ويراد بعلم الدواوين تدوين شعر الشعراء فى كتب تسمى دواوين الشعراء . وعلم الاستيفاء ما يعرف به ضبط أموال الديوان وصرفها . ولو ذهبنا فى تتبع الآراء فى إحصاء هذه العلوم الأدبية ، اللازمة لثقافة الأديب لوجدناها شاملة كل أنواع المعرفة الإنسانية ، ولانتهينا إلى ما انتهى إليه ابن خلدون حين قال عن الأدب « حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف » والحق أن الأديب ، لتكمل له الأدوات ، مضطر إلى الالمام الصالح بخلاصات الفكر الانسانى والاتصال بنواحى الحياة الاجتماعية والفنية والعلمية حتى يؤدى وظيفته على وجه مفيد ، إذ أن الأدب هو خلاصة للمواهب النفسية ، وسجل للحياة البشرية من جميع آفاقها ، وقد ذهبت أوقات هذا الأدب اللفظى الفارغ الذى لايدل إلا على فقر العقول ، وجدب الخيال ، وبرود العاطفة ، وعلى تصنع أسلوبى حقير ، وأعود فأقول : إن لكل من هذه العلوم تاريخه ، وكتبه ، ومباحثه ورجاله[٣] ويعنينى هنا أن أوجز القول فى ثلاثة منها : النقد الأدبى ، والبلاغة ، وتاريخ الأدب . ثم أشير إلى مايدعى ثقافة الأديب .

حينما يقرأ الناس الشعر أو النثر لأديب تنشأ فى نفوسهم آثار لما قرأوا قد تكون حسنة تحبب إليهم هذا الكاتب وآثاره ، وقد تكون سيئة تبغضه إليهم فينصرفون عنه وعما ينشىء ، فهذه الآثار هى أساس النقد الأدبى ، والأصل

(١) مقدمة شرح المفتاح .

(٢) راجع المواهب الفتحية للشيخ حمزه فتح الله ، جـ ١ ص ١٨ — ١٩ .

(٣) راجع فى ذلك الفهرست لابن النديم . وكشف الظنون لملا كاتب جلبى ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

لهذه الآراء والأحكام التى يصدرونها على الشعر والنثر ، فأمرؤ القيس يجيد وصف الصيد ، وعنترة نابغة فى الحماسة والحرب ، وزهير فى المديح ، والنابغة فى الاعتذار والأعشى فى الخمريات وعمرو بن كلثوم فى الفخر ، والجاحظ فى التحليل والتعليل ، والمتنبى فى الحكمة ، والمعرى فى الفلسفة .

كل ذلك ونحوه آراء خاطفة فى النقد وتقدير الأدباء يطلقها القارئون أو السامعون . وقد نشأ النقد موجزاً مرتجلا منذ الجاهلية وقد وجد الناقد الأول عقب الشاعر الأول ، ثم تواردت على هذا الفن — أو العلم — أطوار مثّلها اللغويون ، والنحاة ، والمفكرون والأدباء[1] حتى انتهى إلى قوانين تقريبية تجدها فى نقد الشعر ونقد النثر لقدامة ، والعمدة لابن رشيق ، والموازنة للآمدى والوساطة للجرجانى ، وتجدها متناثرة فى نحو الأغانى ويتيمة الدهر وزهر الآداب وغيرها . والنقد ، كما يلى ، يقوم على الفهم ، والتقدير ، والموازنة ، ويعتمد على الذوق المهذب المصفى الذى هو مزاج من العقل والعاطفة والخيال ، وثمرة لمواهب فنية ودراسات قويمة . ويمكن الفرق بينه وبين الأدب (بمعناه الخاص) بأن الأدب سابق والنقد لاحق ، وأن الأدب يتصل بالطبيعة اتصالا مباشراً والنقد يراها فيما يتناول من آثار الشعر والكتاب ، والأدب إيجابى ينتج ما نقرأ أو نسمع شعراً أو خطابة أو قصة ، والنقد فى الأصل سلبى يحاسب الأديب ويقدر آثاره ، وقد يكون إيجابياً يهدى إلى السبيل القويمة للإنشاء . والأدب ذاتى يصوّر شخصية الأديب ومواهبه الخاصة ، ولكن النقد مزيج من الذاتية والموضوعية فهو مقيد بأصول علمية مقررة من جهة ومتأثر بذوق الناقد ووجهة نظره من جهة ثانية ، وهذا يدل على أن الأدب فن خالص والنقد فيه من الفن والعلم ، وأخيراً يكون الأدب إنشاء والنقد وصفاً فى الاصطلاح الحديث .

---

(١) راجع تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه ابراهيم .

هذا النقد الأدبى كان من العوامل التى أوجدت علما آخر هو البلاغة ، فإن ملاحظات النقاد وآراءهم استحالت فيما بعد إلى قوانين علمية ترشد الكتاب والشعراء إلى ما يجب اتباعه فى التعبير عن العقل والشعور ، وهى قوانين البلاغة وأبواب المعانى والبيان والبديع فى علوم اللغة العربية . وقد عاش النقد والبلاغة مختلطين من أقدم عصورهما فلم ينفصلا إلا بمشقة وفى نحو القرن الهجرى الخامس حين أقام الأستاذ عبد القاهر الجرجانى أسس البلاغة واضحة ، ثابتة الدعائم متميزة الصفات فى كتابيه الخطيرين : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة . ولكنك تقرأ البيان والتبيين للجاحظ ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، ونقد الشعر والنثر لقدامة فتجد العلمين مختلطين ولا سيما عند الجاحظ والعسكرى فان هذا الأخير يجعلهما شيئا واحداً إذ يقول فى مقدمة الصناعتين : « إن صاحب العربية إذا أخل بطلبه ، وفرط فى التماسه ، فاتته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفّى على جميع محاسنه ، وعمى عن سائر فضايله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله ، وظهر نقصه ، وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل » . [1] وليس هذا بالأمر الغريب بل هو طبيعى إذ كل من النقد والبلاغة يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال فى الأداء والتعبير الأدبى ، فالبلاغة تأخذ بيد الأديب وتهديه إلى الصواب والنقد يقفه على ما أصاب من حسن وما تورط فيه من قبيح فهما متحدان موضوعا وغاية وإن افترقا من وجوه :—

(الأول) أن البلاغة إيجابية سابقة فانها تضع للأديب القوانين التى تساعده على التعبير وتأليف الكلام الواضح الجميل ولكن النقد يفرض أن الكلام قد

(١) ص ٣ طبعة صبيح .

تم انشاؤه ثم يتخذ من قوانينه مقاييس يقدر بها هذا الكلام لبيان ما فيه من محاسن أو مساوىء ولذلك يأتى متأخر الوظيفة .

(الثانى) أن البلاغة تعنى بالاسلوب أكثر فتفرض أن الأديب عنده مادة يريد أداءها مهما تكن قيمتها ، ثم ترسم له طرق الأداء شعرا أو نثرا ، خطابة أو قصصا أو تقريرا أو تمثيلا . أما النقد فيعنى بالأسلوب والمادة جميعا ويتناولهما بالتقدير على حد سواء ، وان كانت مقاييسه عامة قليلة .

(الثالث) أن الاصل فى البلاغة أنها مرتبطة بالقراء والسامعين ، فالبليغ ملزم بملاحظة حاجتهم الثقافية ، ومستواهم فى الفهم ، وما يحيط بهم من مؤثرات ، ثم يؤلف كلامه مطابقا لهذه الاحوال [1] والاصل فى الادب الاتصال بالأديب نفسه وتصوير مواهبه وآرائه فى صدق ووضوح ، وعلى القراء أن يعدوا أنفسهم لدراسته وفهمه ، على أن النقد والبلاغة كثيرا مايتلقيان اذا ما تقاربت حاجة الكاتب وقرائة ، وكان أديباً اجتماعياً يحسن الاتصال بعصره ومعاصريه .

وأما تاريخ الادب فيعد على حداثته من أهم وأسمى الابحاث الانسانية لانه تاريخها العميق الشامل وصحيفتها الصادقة الجميلة .

يرى مؤرخ الأدب أن نصوصه ثمرة طبيعية لشيئين : البيئة وشخصية الأديب فهو أمام ثلاثة أشياء . أدب له خواصة العقلية والوجدانية والخيالية والأسلوبية ، وبيئة فى ظلها أنشئت النصوص وألفت الكتب . وأديب صدرت عنه هذه المنشآت على أنها أثر مباشر له وغير مباشر للزمان والمكان وما يلابسهما من عوامل ، فيتخذ النقد الادبى وسيلة لبيان خواص الأدب فى عصر من العصور ، ويوازن بين الأدب فى هذا العصر وبينه فى آخر ، ثم يعود باحثا وراء الاسباب التى طبعت الادب بهذه الطوابع فيقف وقفات طويلة عند البيئة بأوسع معانيها فيدرس المكان

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ١٠ وما وليها ، طبعة ثانية

من حيث طبيعته ومناظره وأجواءه وحوادثه المطردة الطارئة ، ثم يدرس الجنس وخواصه الموروثة والطريفة ويحدد الفترة الزمانية وما تحقق فيها من مستوى عقلي واجتماعي وثقافي خاص ، ولا ينسى الدرجة الفنية ذات الاثر فى الاذواق والمواهب ، وهكذا يلم بجوانب الحياة وعناصرها فى مكان ما وفى عصر خاص فاذا انتهى من ذلك أو من هذه الأسباب العامة التى تتصل بالأدب فتؤثر فى موضوعه وعناصره عاد فوقف عند الشعراء والكتاب فدرس سيرهم وشخصياتهم محتالا لذلك بعدة وسائل منها آثارهم الأدبية نفسها ، وبذلك يكون قد أحاط بكل ما يؤثر فى الأدب من عوامل سياسية واجتماعية ، ودينية ، وشخصية ، فيحصيها ويوازن بينها ويتبين ما يكون بينها من تشابه أو تطابق ثم ينسقها فى فصول علمية تكون هى الأسس الأولى لتاريخ الأدب .

ولكن هذا المؤرخ لا يمكن أن يمحو ذوقه وشخصيته وتقويمها ، وهو حين يدرس البيئة معرض لاختلاف الآراء فى مقدار صلتها بالأدب والأدباء . وأما دراسة الأشخاص فتقفه دائماً أمام أنواع من العبقرية والنبوغ يعجزه تفسيرها . لذلك كان تاريخ الآداب سائراً على قدمين من العلم والفن أو من الموضوعية والذاتية ، ولكنه كما رأيت عبارة عن تاريخ العقل والشعور أعنى تاريخ الإنسان باعتباره ثمرة الحياة وخير ما فيها جميعاً . ولكن انظر إلى هذه الأبحاث اللغوية والطبيعية والفلسفية والجغرافية والفنية والتاريخية والنفسية التى يجب أن يلم بها مؤرخ الآداب لأنها عوامل تؤثر فى الأدب وإليها ترد خواصه فى كل مكان وزمان أنظر إلى الأدب فى العصر الجاهلى وحده ، ولعله عصر السذاجة بالنسبة لما وليه ، تر أنك مضطر إلى الإحاطة الدقيقة بحياة بدوية جاهلة ذات درجة خاصة من الحضارة ، ومستوى محدود من التفكير ، ومتأثرة ببيئة طبيعية واجتماعية معينة ، ثم هذه الحياة الفردية للشعراء والخطباء ، وكلما كان تقدم الزمن فوصل إلى العصر

العباسى أو النهضة الحديثة زادت مسئولية المؤرخ والناقد لتعقد العوامل فى الأديب وتشابك ما يؤثر فيه من ثقافات منوعة .

هذا جانب من الثقافة لابد منه المؤرخ والناقد ، فاذا نظرت إلى الأديب المنشىء وجدت حاجته إلى الثقافة العريضة العميقة ماسة لاتقف عند حد و بخاصة فى عصرنا الحديث الذى كثرت فيه المعارف ، واتصلت الثقافات ، وألغيت المسافات الزمانية والمكانية بين الشرق والغرب ، فلا عذر لمن لايلم بأحدث الآراء والمذاهب فى العلوم والفنون والآداب ، ذلك لأن الأدب خلاصة مركزة جميلة للجهود الثقافية والانفعالات الصادقة التى تسيطر على الأفراد والجماعات فى بيئة من البيئات ، والأديب الكامل زعيم لكل نهضة وسابق كل رائد ، نفسه أشبه بالبحيرة التى تستقر فيها مياه الرافد ، تنتهى إليه مواهب الجماعات فينهض بأعبائها ويصور آلامها وآمالها ويدعوها إلى المجد سراعاً فتركض خلفه إلى الغايات . وأما ذلك الأدب اللفظى الذى يجنح إلى سرد المترادفات ، أو صنع الصور البديعة ، أو الكلمات الغريبة ، أو العاطفة المكذوبة ، فقد صار غثاً منبوذاً ، والعمد إليه جريمة أدبية لايسغيها ذوق ولا يقرها عقل أى عقل .

و إذا رحنا نعد فضل الدراسات المختلفة على الأديب طال بنا المقام وحسبنا الإشارة الخاطفة إلى بعضها ، وعلى الأديب أن يشعر نفسه خطرها بالرجوع إلى مصادرها ليرى كيف تتسع آفاق فكرة وتصح آراؤه وتنضج مواهبه جميعاً .

فالتاريخ مادة خصبة للأديب تمده بالمعارف السالفة والتجارب المختلفة يتخذ منها موضوع قصصه وآيات استشهاده ، ويفيد من نصوصه وأساليبه مادة صالحة للإنشاء ، على أن التاريخ نفسه صار يكتب بطرق قصصية تسهيلا لقراءته وتشويقاً إليه ، فهو الجانب الثقافى الأول . والجغرافيا قصة الطبيعة وباب أسرارها ، ومعقد الصلة بينها و بين الإنسان . والفلسفة خلاصة الفكر الإنسانى وهدى التفكير

ووسيلة تنظيمه ليكون مطرداً منسقاً لا يقدم ولا يخصص ولا يعمم إلا حيث يجب ذلك . وعلم النفس صار الآن مصباحاً للخطيب والكاتب والشاعر ، ولعل خير نجاح يصيبه أديب ما كان على أساس الخبرة بطبائع النفوس ونزعاتها المتباينة . وخير الأدباء هم الذين ظفروا بثقافة واسعة كالجاحظ وأبي تمام والمتنبي والمعرى ومثلهم المعاصرة لاتحتاج إلى تعداد . ولأمر ما جمعت هذه الدراسات كلها ودخلت كلية الآداب ؟ لا ، بل إن الدراسة الدينية والقانونية والاقتصادية والفنية كلها وغيرها عناصر هامة لكل أديب يفهم الواجب عليه فهماً صحيحاً ، ويستعد لأداء رسالته فى نجاح وتوفيق .

وعلى الرغم من توزع الفنون الأدبية بين الكتاب والشعراء واختصاص كُلٍّ بفن منها ؛ ما بين قاصّ ، وممثل ، وخطيب ، وصحفى ، مثلا ، فلا غنى لأحدهم عن الإلمام بسائر الفنون شأنه شأن الطبيب المختص بعلاج مرض بعينه لايغنيه ذلك عن الإلمام بالصحة العامة ومقوماتها . . . وهكذا تتواصل الفنون الأدبية وتقتضى من الأديب إحاطة عريضة وثقافة عميقة .

الفصل الخامس

الأدب بين العلم والفن[1]

— ١ —

يجلس طالب الهندسة أمام أستاذه بالكلية يتلقى عنه وعن الكتب مسائل الهندسة ونظرياتها مؤيدة بالبراهين العقلية ، فيقال حينئذ إن هذا الطالب يدرس علم الهندسة ، ولكنه بعد هذا يغادر حجر الكلية وكتبها العلمية إلى الطرق والقناطر والمنازل والآلات الكهربائية والبخارية ليرسم ويبنى ، ويدير الآلات ، وينشىء المحدثات مستخدماً عدة وسائل يطبق بها هذه النظريات التى وعاها من قبل ، فيقال هنا : إن الطالب يدرس فن الهندسة ، وهكذا تجد الهندسة علماً حين تدرس معارف نظرية ، وفناً إذا اتخذت شكلا عملياً تطبيقياً تظهر آثاره فى المواد الحسية أغلب الأحيان . وكذا الشأن فى الطبيعة والكيمياء والزراعة ، هى علوم ندرسها فى الكتب ونستمع إليها فى المحاضرات ، وهى فنون نشهد آثارها ووسائلها العلمية فى المصانع والمزارع والمصاحّ . والبلاغة والنحو من هذا الضرب أيضاً فهذه القواعد المقسمة أبواباً وفصولا وكتباً هى الناحية العلمية فيهما ، وأما التراكيب الصحيحة فى النحو والكلام المطابق لمقتضى الحال فى البلاغة فهى الظاهرة فى باب التعبير الذى يجمع بين الصحة والجمال جميعاً .

فالعلم — بناء على هذه الملاحظة السابقة — هو هذه المعارف الإنسانية فى أسلوب

---

(١) هذا الموضوع نشر من قبل فى صحيفة دار العلوم ، عدد ٢ سنة ٣ ، إجابة عن الأسئلة ما العلم ؟ ما الفن ؟ ما الفرق بينهما ؟ ما أقسامهما ؟ ما صلة الأدب بكل منهما ؟ ثم عدل هنا بعض الشىء ليناسب سائر الفصول .

نظرى منسق ، وأما الفن فهو هذه المعارف نفسها فى شكل عملى تطبيقى . هذا هو الفارق العام بين العلم والفن ، وهو يشبه ما نعرفه فى علم النفس من الفرق بين قوتى الإدراك Cognition والنزوع Conation ، من مظاهر الشعور النفسانى . ولكن هذا الفرق الاجمالى بينهما لا يكفى لايضاح ما نحن بعرضه من وضع الأدب منهما موضعاً ثابتاً واضحاً يزيل هذا الابهام الذى سيطر منذ العصور القديمة على هذه المصطلحات المتصلة بالأدب وفنونه وعلومه ، فلنتقدم إلى الموضوع .

للعلماء كلام كثير فى تقسيم العلوم إلى أقسام أو أنواع . وهذا الكلام يدور حول الأساس الذى يبنى عليه هذا التقسيم ؛ فمرة يقسمونها إلى علوم وصفية تقريرية تعنى بوصف الواقع وشرحه كالطبيعة والكيمياء والفلك ؛ وإلى علوم معيارية ، وظيفتها إيضاح المقاييس التى يجب أن تكون عليها الحياة الكاملة للأشياء ؛ فالمنطق يبحث فى وسائل التفكير الصحيح ، والتناسق هو مقياس علم الجمال ، وغاية البلاغة بيان المثل الأعلى للتعبير المؤثر الجميل .

ومن العلماء من يترك ناحية الواقع والكمال السالفة ، ويقيم تقسيمه على أساس آخر هو مباحث العلوم ومقدار صلتها بالكائنات ، فعلوم شكلية Formal هى الرياضة والمنطق من كل ما يقوم على النظريات المجردة ، وعلوم طبيعية Natural تبحث فى عناصر الطبيعة ومظاهر الكون تحليلا وتركيباً كالطبيعة والكيمياء . أما العلوم الأدبية Moral فانها تتناول صلة الإنسان بالزمان والمكان ، وحياته الاجتماعية فى البيئات المختلفة كالتاريخ والجغرافيا والأخلاق وهنا نضع العلوم الأدبية[1] .

كذلك ينقسم الفن قسمين : أولهما الفن العملى أو النافع Useful art كالنجارة الساذجة والبناء والفلاحة ، وهو ما يكون عمل الجسم فيه أظهر من عمل النفس ،

(١) راجع أصول علم النفس لرمسى قنديل ، ج ١ ، ص ٣ .

وغاية هذا القسم الفائدة النفعية ، ولما كان وقفاً على هذه الناحية الحسة للحياة سماه بعضهم الحرف والصناعات ، و إنما ذكرناه هنا إتماماً للتعريف بالفن أولا ، ولنلفت النظر ثانياً إلى أن الأدب كثيراً مايتخذ وسيلة لهذه الغاية النفعية وكسب المال فينقله ذلك من دائراته الأصلية إلى دائرة الصناعات ويفقد لهذا مكانته السامية وجماله الرائع ، وثانيهما الفن الجميل Fine art . وعمل النفس فيه أوضح من عمل الجسم كالموسيقى والرسم والأدب ، و إذا كان لابد من الاشارة إلى غاية هذا القسم ، فهى التعبير الجميل الصادق الذى يبعث فى النفوس اللذة والسرور و يظهر الناس على أسرار الحياة وروحها العميقة ، وهذا كلام يعوزه الايضاح وضرب الأمثال ، وسترى فى هذا الفصل شيئاً منه بقدر ما يسمح المقام .

والفن الجميل منه السمعى كالموسيقى والأدب ، ومنه البصرى البارز كالنقش والتصوير ، والبصرى السطحى كالرسم الذى يعبر عن الجمال بالخطوط والألوان ، ونود هنا بايجاز شديد رأياً لفليسوف الهند وشاعرها — تاجور — فى نشأة الفن وغايته ، وهو رأى ينفعنا هنا فى بيان ما يصل الأدب بسائر الفنون . وهو مقتبس من محاضرة ألقاها فى أمريكا تحت عنوان : مالفن ؟ (١)

يرى تاجور أن أهم فارق بين الانسان والحيوان أن الثانى يرتبط بالحياة ارتباطاً يقف عند حدود الضرورة فلا يتعداها إلى الكماليات الفائضة التى تعد من أقوى مظاهر الحرية الانسانية ، فالحيوان يقنع بما يسد كفايته من الطعام والشراب فى حين أن الانسان يطمع دائماً أن يتجاوز هذه الحدود فيضاعف أرباحه ويكدس ذخائره و يلتمس الأسباب لأنواع الرفاهية والنعيم ، و يتحرر حينئذ من كل ضروره ملحة ، و يصبح سعيه فى سبيل المال غاية مقصودة لذاتها دون أن تدفعه إليها ضرورة ملحة ؛ فالمال للمال كما الفن للفن :

(١) السياسة الأسبوعية عدد ٢١١ و ٢١٢ : ترجمة الأستاذ يوسف حنا .

كذلك نجد معارف الحيوان تنتهى عنـــد حاجته إلى المسكن والغذاء ، وتـكييف نفسه طبقاً للجو المحيط به ، ولـكن الانسان يعرف أكثر مما تتطلبه ضرورات العيش ، وهذه الزيادة فى المعرفة هى التى تدفع الانسان إلى الفخر بأنها العلم للعلم ، وهى التى تشعره بلذة الحرية وتسمح له أن يقيم عليها علومه وفلسفاته .

فاذا تركنا هاتين الناحيتين الحسية والعقلية إلى ناحية الوجدان رأينا أن الانسان يشترك مع الحيوان فى ضرورة التعبير عن عواطف الفرح والألم والخوف والغضب والحب . وهذا التعبير الوجدانى عند الحيوان لايتعدى حدود المنفعة ، ولـكنه عند الانسان يتصل بسبب قوى إلى نفس الحدود النفعية ثم يتجاوزها إلى آفاق أخرى يكون التعبير فيها عن الوجدان غير مقصود به حفظ الحياة ، وإنما هو التعبير للتعبير ، أو يكون الفن للفن Art for Arts' sake ، فالانسان له فيض من نشاط العاطفة يزيد كثيراً على ماتتطلبه حاجته إلى المنفعة وحفظ نفسه ، وهذا الفيض العاطفى يصعب على النفوس كبته ، فهو كالبخار ، يحاول دائماً الخروج إلى الـكون فى شكل ما ، وهذه الأشكال هى نتاج الفنون .

— ٢ —

و إيضاحاً لهذه النظرية التى عرض لها تاجور ، نقول : إن هذا الفيض الوجدانى طبعى فى الإنسان ، بكر فى الظهور ، و بدت مظاهره من أقدم العصور ، ولا تزال تزداد وتتنوع حتى الآن ، وستبقى متجددة ما دامت الحياة ؛ فنى فجر التاريخ ارتاع الانسان بمظاهر الـكون ، وأدهشته الـكواكب السائرة ، والطبيعة الجميلة ، فانتفع بها أولا ، ثم اشتد وجده بها فعبدها ثانية . وما كانت هذه العبادة إلا لغة فنية عبر بها الإنسان الأول عن عواطف الاعجاب والشكران ، ثم انتصر المحارب على قرنه وأخذ يبتهج بهذا الفوز مغنياً راقصاً أو معبراً عن عواطف الفرح والشماتة

وكان غناؤه أول الأمر أصواتاً مبهمة وأنغاماً لا تدل على أفكار أو معان صريحة محدودة ، فقد كان أشبه شيء بما يتصايح به العمال حين ينقلون حملا ثقيلا أو يجرون مركباً فى البر والبحر ، فتسمع منهم « هيلا هيلا ، هيلا هب هيلا » . . . لغة تصور عاطفة ما دون إفصاح عن المعانى والأفكار . وتلا ذلك دور آخر حلت فيه الكلمات ذوات المعانى محل هذه الكلمات المبهمة ، وعن ذلك نشأت الأناشيد أو قل نشأ الشعر أحد هذه الفنون الجميلة ومن أسبقها إلى الوجود .

ولما حاول الانسان تسجيل مافى نفسه بالكتابة عاش مدة وهو قانع بسذاجتها ولكنه أخذ يجملها و يعقب عليها بألوان من الزخارف والتهاويل حتى نشأت فنون الرسم والنقش والتصوير — أى عمل الصور وهى التماثيل — وغيرها . ومعنى هذا كله أن هناك عواطف قوية صادقة تسيطر على نفس الانسان وتلح عليها لعلها تخرج إلى الحياة كما يتنفس الأناء عن بخار الماء المغلى ، فاذا بنا نرى هذه العواطف الفائضة فى شكل الرقص أو الغناء أو الرسم أو التصوير أو الكلام ، نسمعها ألحاناً موسيقية ، ونصوصاً أدبية ، ونشهدها حركات توقيعية ، وألواناً متناسقة ، وأجساماً مصقولة مهذبة ، وهذه هى الفنون الجميلة التى أشرنا إليها من قبل . وقد رأيت أن الأدب أحدها ، وسترى فيما يلى أنه يجمع فى تعبيره بين فئة منها ثم يمتاز عنها جميعاً بالبيان والافصاح .

ونعود إلى العلم والفن وماقد يكون بينهما من فروق تتصل بتاريخهما وصلتهما بالحياة بعد ماعرفنا أن العلم يتناول ناحيتها التطبيقية العملية .

(١) من هذه الفروق مايلاحظ من أن الفن أسبق إلى الوجود من العلم ؛ فالشعر — وهو فن — جاء سابقاً علم العروض والقافية ، والتعبير الصحيح كان قبل النحو وقواعده . ومما لاشك فيه أن أصول العروض وقواعد النحو مستنبطه من النصوص الأدبية الأولى لا العكس .

وهذا معناه أن فن الأدب بكر إلى الحياة قبل علم الأدب ، كذلك تغنى الناس ونفخوا فى أعواد القصب والمعادن قبل أن يعرفوا أصول الغناء ورموز الموسيقا ، وقد خلق الإنسان قبل أن يعرف عن نفسه شيئاً ، وازدانت الطبيعة بالأزهار والثلوج ، وغردت البلابل على الأيك ، ولمعت السحب بالبروق وخفقت جوانحها بالرعود قبل أن يتحرى الانسان حقائقها ، ويحاول تقليدها أو يضع لها هذه القوانين الصارمة التى هتكت أسرارها وإن لم تقدر على محوها أو القيام بوظيفتها السامية البديعة ، أو الحدّ من روعتها الخالدة وما كان لفلسفة أرسطو على خطرها ، أن تنسخ فن هومير .

(٢) كذلك يختلفان من حيث صلتهما بالحياة ، فالعلم يتناول الحياة كما هى فى الواقع دون أن يؤثر فى حقائقها شيئاً ، ولكن الفن يتناولها كما يريد الفنى نفسه ، فلا يكتفى بعرضها كما هى خالصة وإنما يمزج بها عاطفة الفنى وخياله فتبدو الحقيقة كما تصورها وخالها ؛ فالعلم يقف من قوس الغمام والأزهار والسحب السارية والطلعة البهية فاحصاً محللا ، يعنى بتعليل الألوان والأجزاء كيف تتألف وتتناسب ، وكيف تنمو وتذبل ، ثم يتلقى عنها ماتمليه عليه وسائله العلمية ويدونها نتائج وقوانين يخضع لها فى دراسته ، وفى مقدار استغلاله للكون ، فاذا ماعرض الفن — ليكن الرسم مثلا — لشىء من ذلك لايفنى فى هذا التدقيق والتحليل الحسى الجاف ، وإنما يعنى بأمرين آخرين : أولها ما يفهمه الرسام من الزهرة أو المنظر من معنى الوادعة أو التآلف أو الجلال ، وثانيهما مايرى أنه يمثل هذه المعانى تمثيلا جميلا قوياً ، فيختاره ويؤثر على ماسواه من مادة مايرى ؛ فالوردة فى ألوانها ووضعها ، ولا يبالى فى الشجرة عدد أوراقها أو أفنانها بقدر ما يبالى شكلها ولونها وثمارها وظلالها وما قد يأوى إليها من الطيور ويريف ظلها من الخلائق . فاذا فهم ما يراه هو ملائماً لذوقه الفنى عمد إلى الرسم فأبرزه لنا صورة منتقاة العناصر دالة

على معان شائقة هى روح الطبيعة وسرها الرائع . وقد يزيد على هذين أشياء يكمل بها نقصاً شهده فى الطبيعة نفسها . ألست ترى أن طاقة الورد المرسومة قد تكون أجمل تنسيقاً وأدل على البراعة من هذه الأزهار المتناثرة فى البستان والتى لا يجمعها نظام ، ولا ينظمها ذوق مستقيم ؟ ألست تجد فى وصف الطبيعة من السحر والفتنة مالاتظفر به فى الطبيعة ذاتها ؟ بلى ، وذلك لأن الرسام أو الشاعر قد عرض عليك الطبيعة حيـــة فيها نفسه وتفسيره لها وما استخرج من أسباب جمالها أو عرض عليك الحياة من خلال نفسه وكما رآها فجمع بين شيئين الطبيعة مضافاً إليها نفسه : عواطفه وخياله . مرت سيدة أمام رسام فراعتها لوحة عليها منظر طبيعى بديع ، فقالت له : ولـكن الطبيعة ليست كذلك ! فأجابها من فوره : ولـكن أما كنتِ تودين أن تـكون الطبيعة كذلك ؟ !

وهذه القصة تشير إلى أن الفن كثيراً مايرسم المثل العليا للحياة لأنه يتجاوز الواقع إلى بيان مايجب أن يكون حسب رأى الفنى وسمو خياله وصدق شعوره .

فاذا كان الفن تصويراً شاهدت التمثال ذا خواص بارزة تصور لك نواحى الجمـال أو العظمة لصاحبه . ولعل الموسيقا من أشد الفنون رمزاً وأقواها اتصالا بالعاطفة الروحية دون عناية بالحسيات ، وهذا هو الأدب ، يسلك هذا المسلك نفسه ؛ فالربيع فى رأى العلم أحد فصول السنة ؛ يحل لأسباب طبيعية خاصة ، وفى شهور معينة ، تصحبه مظاهر جميلة من زهر نضر ، ونسيم معتدل وأريج إلى غير ذلك من الحقائق المقررة التى لا يختلف الناس فيها مهما تختلف بهم البيئات ، ولـكن الربيع فى رأى الأدب هو ما يعرضه البحترى حيث يقول :

أتاكَ الربيعُ الطلْق يختال ضاحكا من الحُسن حتّى كاد أن يتكلّما
وقد نبّه النَيروز فى غَسَق الدُّجى أوائلَ وردٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّما

يُفتِّحها بَردُ الندى فكأنَّه يبُثُّ حديثاً كانَ قبلُ مكتَّما
ومِن شَجَرٍ ردَّ الربيعُ لباسَه عليهِ كما نَشَّرتَ وشياً مُنَمنَما
ورقُ نسيمُ الريح حتى حسبتُه يجيءُ بأنفاسِ الأحبة نُعما

زائر باش ، مزهو بجماله يكاد يحدّثك عن نفسه وجماله ، طاف على الورود فى ظلمات الليل فأيقظها من سباتها ، وكشف بنداه عن تيجانها حتى نشرت شذاها العبقرى وكان سراً مكتوماً أفشاه الندى ، وهذه الأشجار قد ازّينت بما خلع عليها الربيع من حلل تشبه الوشى زركشته يد صناع ، وأما النسيم فما أشبهه بأنفاس الأحبة الناعمات فى رقته وشذاه . فهذه الصور الفاتنة للربيع تتجافى كثيراً عن التحليل العلمى ودقته الجافة ، وإن تعمقت إلى أسباب جماله وأبعد أسراره ، فعرضته علينا كائناً حياً ذا إرادة قادرة على الإبداع والزخرف ، وهى صورة من نفس الفنى خلعها على الربيع ، وأخضعه بذلك لسلطان نفسه ، ورسمه كما شاء — العلم يخضع للحياة فيستميلها ويكتب ، والفن تخضع له الحياة فيتصورها ويرسم .

(٣) ويتصل بذلك فرق آخر بين العالم والأديب ، فلو أنك أوقفت رجلين : عالماً وأديباً أمام الأهرام لرأيت عجباً فى اختلاف نظرهما إلى هذه الآثار الخالدة فهّم العالم مقاييسها ، وطرق إقامتها ، وأساس أوضاعها ، والغرض منها ، وصلتها بالعقيدة الدينية لقدماء المصريين . ولكن الأديب يراها جملة لا تفصيلا ، فان كان عنها راضياً كانت سجل المجد ، وصحيفة الخلد ، وآية المفاخر ومعجزة الدنيا . وإن كان ساخطاً بدت له رمز الظلم والجبروت ، وشاهد الذلة والعبودية ولسان السخط ، يذيع عن الفراعين عنتاً واستبداداً فى الدنيا إلى آخر الدهر . وإن كان حكيما رآها سمة الجلال والوقار ، قامت تسجل على الناس ما قدموا من

الخيرات والسيئات ، تتلوا عليهم عبر الحوادث وتقص عليهم العظات ، فني ثناياها تاريخ الدنيا وتجارب الأمم .

والسر فى ذلك أن العالم يتلقى الحياة بعقله ويحاول دائماً أن يخضعها لقوانين عقلية وتجريبية ، يشترك مع سواه فى إدراكها إذا كانت هذه الحقائق العلمية لا تدل على الشخصية كما تدل عليها العاطفة ، ولكن الأديب يتلقى الحياة بمزاجه ووجدانه الخاص ، ويفسرها متأثراً بشخصيته هذه ؛ تدخل مشاهد الدنيا إلى نفسه البهجة الطروب ، فتصور تصويراً جميلا وتخرج أدباً فرحاً طروباً . فاذا كانت نفسه حزينة متشائمة فسرت المشاهد بؤساً وأسفا ، وكان الأدب حزيناً متشائماً . وكذلك نجد نفس الأديب أشبه بأنابيب فيها صبغة ذات لون خاص تنغمس فيه الأشياء فتخرج مصبوغة بما فيه ، وهنا نذكر ما قلناه قبلا من قول الاستاذ ماثيو أرنولد Matlhew Hrnold عن الشعر بأنه « نقد الحياة » أى تفسيرها على هذا النحو المذكور ، فأطلقه النقاد على الأدب جميعه شعراً ونثراً .

ولما كانت الشخصيات الفنية مختلفة باختلاف الفنيين رأيت لكل منهم نظرته الخاصة إلى الاشياء ، وأسلوبه الممتاز فى التعبير عنها . فقدت وجدت سابقاً أن الفنون اختلفت فى وسائل التعبير بين ألوان ، وألحان ، وعبارات ، وأحجار ، ونقوش ؛ ونجد هنا أن الرسامين يختلفون فى رسم الشيء الواحد ، والمصورين فى نحت التماثيل ، والموسقيين فى تلحين الدور عينه ، والشعراء فى تخييل ما يشهدون كما رأيت — فى الفصل الأول — من خلاف بين المعرى والشريف الرضى فى تخييل المشيب . على أنك تجد الشاعرين يتفقان على حسن الشيء ، ولكنهما يختلفان فى صورة الحسن ، كيف تؤلف ، فالشيب عند أبى العلاء نتيجة طبعية للحياه لا يليق إخفاؤه بالادهان والاصباغ ، وهو عند الشريف

سيف مصلت على الرؤوس لاقوة ماضية فى يد الناس كما يقول المغالطون ، ولكنه عند الفرزدق نجوم تزين صفحة الظلماء :

تفاريقُ شيبٍ فى الشبابِ لوامع وما حسنُ ليل ليسَ فيه نجومُ

وهو عند البحترى بُروق السحاب الندىّ وزينة الليل البهيم : —

أىُّ ليلٍ يُزهى بغير نجومٍ أو سحابٍ يَندى بغير بروقِ

أنظر حكمة الله فى هذا الكون ، جعل الناس متفقين فى الأمور العقلية التى تقوم عليها نظم الحياة وعمرانها فالكل متفق على أن خمسة زائداً عليها خمسة تساوى عشرة ، وجعلهم مختلفين فى هذه الوسائل الفنية لما فى ذلك من المتعة والبهجة والنعيم بالحرية إلى أبعد آفاقها ، فكم ترى رسوماً وتماثيل وألحاناً وأخيلة لشىء واحد تواردت عليه عبقريات الفنيين ، فعرضته عليك صفحات فيها كل سحر مبين . كيف تكون الحال لو عكست الآية ؟ ألا يصيب الحياة جمود وملال ، ثم فساد واضطراب خطير ؟ !

(٤) كذلك يختلف العلم والفن من حيث الغاية ، فالعلم يغذى الفكر الإنسانى ويعبر عن وظيفة الإنسان باعتباره حيواناً ناطقاً مفكراً ، والفن يغذى الوجدان ويعبر عن شخصية الإنسان باعتباره حيواناً شاعراً له فيض من وجدانه وضميره ، ولنوضح ذلك بشىء من التفصيل : هذه الحقائق العلمية يحصلها الإنسان بالنظر والتجريب ، ويكون بها عقله الكسبى وتصبح بعد حين حقاً مشتركا بين الأفراد لايكادون يختلفون فى تعرفها ، فكما أنها تصدر عن الفكر ، تتجه كذلك إليه تزيده نوراً وعرفاناً وتزوده بالثقافة وتعينه على الانتفاع بعناصر الطبيعة وكل ما فى الكون من خيرات ومعنى ذلك أن غاية العلم تقع فى ناحية النفعية وعندها تنتهى ، والفن : ما غايته ؟ رأينا أن (تاجور) يميل إلى أنها التعبير عن شخصية الفنى ، وتتمثل الشخصية فى فيض الشعور والعواطف القوية الصادقة التى تتخذ

من الألوان والألحان والعبارات الجميلة وسيلة ولغة لهذا التعبير المراد ، وهناك من يرى أن غاية الفن هى الجمال الذى يعرضه الفنى ألواناً وألحاناً وأعاريض ليسرنا ويمتعنا وعند هؤلاء يكون الجمال غاية لاوسيلة بخلاف مايرى الفيلسوف الهندى الشاعر . وإذا عرفنا أن الجمال معناه الصدق فى الأداء شعرنا بالتقاء الرأيين وعدم التنافر بينهما . وعلى أيهما سرنا فليس من ينكر على الفن ما فيه من جمال للبصر ومتعة للنفس ، وراحة للانسان وأنه دارة (واحة) فى صحراء الحياة يأوى إليها السفر مجهودين فيطمئنون منها إلى ظل ظليل ، وماء سلسبيل واستجمام للعافية ، يعدونها لسرى الليالى وتأويب الأيام . وكلا المذهبين لايريد أن يعنت الفن ويحمله ما لا يطيق ولا ما ليس من طبعه ، فحسبه مسرة النفوس ولذتها لايعنيه أن يكون نفعياً يحمل مادة الثقافة والتهذيب ، هو الفن الذى يعبر ليس غير أو هو الفن للفن كما قيل من قبل .

ولكنّ هذا العصر الحديث أصيب بهذه التخمة المادية والنفعية الحسية ، وصار الناس لايؤمنون بشىء إلا إذا حمل لهم فى طياته نفعاً محساً ، هو المال أو ما هو بسبيله مما يفيد ، وإذا بهذه الروح تجور على الفن ، وتطلب منه أن يكون نافعاً أيضاً وإلا كان مطّرحاً منبوذاً ، فالفنى الذى كان يقصد من فنه إلى إبراز شخصيته وإشاعة الطرب فى الحياة ، أصبح أمام هذه النزعة الحديثة مضطراً أن يبث خلال تعابيره رسالة تهذيبية أو إصلاحية لتأييد مذهب سياسى أو اجتماعى أو خلقى أو يعمد إلى شرح مسألة فلسفية وعرض فترة تاريخية ، وغير ذلك مما صرنا نسمعه الآن فى نقد الرسامين والمصورين والشعراء والقصاص : ماذا يقصدون بهذا ؟ ما رسالتهم الفنية ؟ هل أحسنوا التفكير والتصوير والتعبير ؟ ! وعندى أنه لا بأس بأن يحمل الفن فى طياته أسباب الاصلاح فيجمع بذلك بين النفع والتأثير ، ولكن الخطر الخطير أن تحل النفعية سيداً عظيما لاضيفاً كريماً . نعم نخشى

سلطان النفعية التى تنقل الفن من جماله الوجدانى الجميل إلى دائرة الحرف والصناعات ، فيصير الشعر نظما والرسم مصورات تعليمية وتذهب بذلك روعة الحياة.

— ٣ —

والآن فالى أى الناحيتين يميل الأدب ؟ وما عسى أن يصله بكل من العلوم والفنون ؟

الأصل فى الأدب أنه فن جميل يعبر عن شخصية الأديب ، و يصور عواطفه متوسلا إلى ذلك بهذه اللغة الكلامية التى تجمع بين الجمال والافصاح ، ويتراءى ذلك فى الشعر والنثر الأدبى والخطابة والقصة والوصف ونحوها من كل ما هو مَعرِض للانفعالات النفسية . ومع ذلك فلا بد من الإشارة هنا إلى بعض المسائل التى تصل بين الأدب والعلم كما نقف فيما بعد عند مسائل أخرى تدخله دائرة الفنون .

(١) الأولى أن الأدب بمعناه الخاص — وهو الشعر والنثر الجميل الذى يقصد إلى تصوير العاطفة — لايمكن أن يستغنى مطلقاً عن الحقائق العقلية ، والمسائل العلمية التى تعصمه من الخطأ فى التفكير والتصوير ، ثم تسند العاطفة وتضمن لها القوة والخلود كما ظهر ذلك فى الفصل والأول والثانى . غاية مايقال أن النقد الأدبى لا يحتم فى هذا الضرب من الأدب أن يكون عنصره العقلى حقائق مبتكرة وآراء جديدة ، فقد يكتفى بالمعارف العادية ولكنه يحرص على الجدة فى التصوير والتمثيل كما ترى فى ذلك فى الكلام على المقاييس النقدية . أما إهمال هذا العنصر العقلى فانه يعرض الكتاب والشعراء للتورط فى أخطاء شنيعة . ويجعل الأدب فارغاً سخيفاً هين القيمة سطحى العاطفة ، ولما قال أبو تمام :

ألذُّ من الماء الزلال على الظما وأطرفُ من مَرِّ الشمال ببغداد

لحظ الجرجانى[1] فساد الفكرة هنا وأخذ على الشاعر جعله الشمال طرفة ببغداد وهى

(١) الوساطة ، ص ٧٢ ط صبيح .

أكثر الرياح بها هبوباً . وقد صار من المقرر أن الأدباء لايستغنون عن ثقافة فلسفية تاريخية جغرافية فنية علمية ، لتكون آثارهم صحيحة قيمة خليقة بالبقاء[١] .

(٢) الثانية أن الأديب بمعناه العام يتناول جميع الآثار التى تتركها أقلام الكاتبين فى أى باب ، فمنه العلوم ، والفلسفات ، والفنون ، والآداب . ويدخل فيه التاريخ والنقد ، والسياسة ، والاجتماع ، والقانون ، والاقتصاد ، من كل مايؤدى حاجة النفس الثقافية . وهذا النوع تغلب فيه الناحية العلمية ، فهو علم فى أسلوب أدبى ، وكثير من فروعه يجمع بين العنصرين العقلى والعاطفى بدرجة متقاربة . فالنقد مزيج من العلم والفن ، والتاريخ لاينسى الخيال والشعور ، وكثير من الفلاسفة كانوا أدباء ، وبعض الكتب العلمية الخالصة صارت تكتب بأسلوب أدبى جميل كما فى « قصة الميكروب » للدكتور بول دى كرويف التى ترجمها الأستاذ أحمد زكى حديثاً .

(٣) الثالثة هذه العلوم الأدبية ، فاللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض علوم فى ناحيتها النظرية ، ولا يستغنى عنها الأديب . فاللغة مادة الأسلوب ورموز المعانى ، والصرف مقياس الكلمات وتصريفها ، والنحو يصلح التراكيب ويضبطها ، والعروض مقاييس الشعر وضابط الحانه وموسيقاه ، والبلاغة هى قانون الصلة بين الكاتب والقارىء . هذه العلوم ليست أدباً وإن كانت لازمة للأدب من حيث إنشاؤه وفهمه ونقده وتذوقه لايستطيع مشتغل بالأدب مجد أن يباشر مهمته قبل أن يثقف هذه العلوم و يأخذ منها بالنصيب الوافى . وهذه مسألة مقررة لاتحتمل الاطالة .

فلنترك هذه الوجه من الموضوع ؛ ولنبحث فيما يصل الأدب بالفنون الجميلة :

---

(١) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(١) أول ما يلقانا من هذه الصلة ما شرحناه فى تعريف الأدب من أنه يصور انفعال الأديب وخواصه النفسية ، وهذا هو عمل الفن الجميل ؛ فالموسيقا مثلا تلجأ إلى الألحان تؤلف بينها لتمثل البلابل الغرّيدة ، أو العاصفة الهوجاء ، أو الأمل الوثاب ، أو اليأس القاتل ، كل ذلك فى بهجة الفرح الطروب أو ثورة المتبرم العنيد ، وكذلك الأدب تسمع فى عباراته أنّة المحزون آده الهم وأضناه ، وصيحةَ السجين الثائر قيدته الكبول والأغلال ، ثم نجوى الغرام ملكت فؤاد العاشق الولهان : —

إن الذين غدَوا بلُبك غادروا وشَلا بعينك لا يزال مَعينا
غيَّضْنَ من عبَراتهن وقلن لى : ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

وكثيراً ماترى الرماح المشتجرة ؛ والأرحام المزقة تسيل بينها دماء عزيزة ، وتفيض لمرآها دموع غزيرة حسرة وندماً : —

شواجرُ أرماح تقطّعُ بينها شواجرُ أرحام ملومٍ قطوعُها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعُها

هذا الفن الأدبى الجميل يسمعك خطرات النفس ، ولكن فى إفصاح لاتلقاه فى فن آخر .

(٢) يلتقى الأدب مع الفنون الأخرى من ناحية العناصر التى تتألف منها جميعاً ، وهذه المسألة تحتاج إلى شىء من الايضاح ، فالموسيقا فن صوتى يتجه إلى العواطف مباشرة يثير منها حزناً أو سروراً ، والأدب كذلك فن صوتى فيه أوزانه النظمية التى تتخذ فى مقاييسها الأولى مع المقاييس الموسيقية ثم يتجه أيضاً إلى العواطف يصورها و يهيجها كما رأيت ذلك منذ حين . و إذا تركنا الموسيقا إلى الرسم والتصوير ، رأينا فنين يعبران عن عاطفة وفكرة هما إكبار العظمة الحربية أو السياسية أو الأدبية أو الالسانية . ووسيلة التعبير عناصر

حسيه من الأصباغ والأحجاز تأتلف أو تصقل لترمز إلى رحمة واسعة أو عبقرية نادرة أو فتنة ساحرة أو طبيعية جليلة . وفن الأدب كما رأيت يشارك هذين فى الافصاح عن الفكرة والتعبير عن العاطفة ، وفيه عنصر الخيال الذى يقابل هذه الأصباغ والأحجار فيهما . فاذا قرأت لشوقى قوله يصف إحدى خمائل الجزيرة :

وخميلةٍ فوقَ الجزيرةِ مسَّها ذهبُ الأصيل حواشيا ومُتونا
كالتبرِ أفقاً ، والزَبرجدِ رَبوةً والمسكِ تُرباً ، واللُّجين مَعينا
وقفَ الحيا من دونها مستأذناً ومشى النسيمُ بِظلِّها مأذونا
وجرى عليها النيلُ يقذفُ فِضةً نثراً ، ويكسِرُ مرمراً مسنونا

فهل تجد الأدب يقصر على مدى الرسم والتصوير فى اتخاذ هذه العناصر الحسية من الألوان والأجسام لعرضها علينا مهذبة مصقولة بخياله الرائع وأسلوبه الواضح الجميل ؟ وأى فرق بين لوحة رُسمتْ عليها الخميلةُ وقت الأصيل وبين هذه الأبيات التى بعثت فيها الجمال حيّا ، وعرضتها تخطر أمامك فى حرم الشعر وحماه مزهوة ذات دل وإعجاب ؟ أجل ، إن كان هناك فرق ، فانه يجعل هذين الفنين — الشعر والرسم — متشابكين لا يبعد أحدهما عن الآخر ، فاللوحة المرسومة تعرض عليك المنظر دفعة واحدة بحيث تتعاون جميع عناصره على التأثير فى نفسك فى لحظة واحدة ، والشعر يعرض عليك هذه العناصر متوالية متتابعة ، فى كل بيت جزء ، حتى إذا انتهيت من القراءة انتهى المنظر عرضاً وبياناً . فاذا امتاز الرسم بذلك — ومثله التصوير — وجدنا الأدب ممتازاً بالافصاح الواضح دون الاكتفاء بالإشارة الرمزية التى قد تخفى على كثير من الناظرين . وإذا كان فن الوصف الأدبى يقابل فن الرسم فان القصة تقابل الخيالة (السينما) . وخلاصة هذه النقطة أن فن الأدب تتوافر فيه هذه العناصر المسيطرة على الفنون الأخرى ، ولكنه يمتاز بالتعبير الصريح ففيه العاطفة والفكرة والعبارة وفيه هذا الخيال الذى يستمد

عناصره من الطبيعة ، ويكونها فى صور من التشبيه والاستعارة والمجاز وحسن التعليل .

(٣) وغاية الأدب كغاية الفنون الجميلة الأخرى . وهب أن هناك خلافا فى تعيين هذه الغاية كما سبق ، فهل يُغير ذلك من حقيقة الواقع ، وهو ما لهذه الفنون من آثار تهذيبية ، وثقافية ، ولذيذة ، تتعاون بها على ترقية الحياة وإزالة جفوتها ، وتهوين مشاقها ، والكشف عن أسرار جمالها ، وتفسير مسائلها تفسيراً فكها حلواً ، ولكنه مع ذلك فلسفتها العميقة ، وحقيقتها السامية ؟ تقف أمام تمثال فيروعك منه صقل وامّلاس ، وأجزاء بارزة تنطق بمواهب خاصة واتساق ينم عن روح ممتازة حتى إذا انتظمت بصيرتك هذه المشاهد كلها أدركت من ورائها تاريخاً حافلا بالمآثر الحميدة ، ومعانى تلتقى عند جزء من الانسانية وهو خلاصتها ودعوة حارة خالدة إلى دين مجيد هو جهاد الحياة وسعادة الممات ، واقرأ هذين البيتين للمتنبى :

ومُرادُ النفوسِ أصغرُ مِن أنْ ... تَتعادى فيه وأن تَتفانَى
غيرَ أن الفتى يُلاقى المنايا ... كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانا

تجده يثير فى نفسك عاطفة التشبث بالكرامة والعزة ، ولكنه يأخذ بتفكيرك إلى مجال فلسفى عميق ، فيقرّر معك أن مطالب النفوس من الطعام والشراب واللباس لا تستدعى هذا التطاحن العنيف ، والتعادى الحاد ، وإذاً فلم كل هذا الصدام والتناحر ؟ إنها لغاية أخرى هى الحرية والكرامة التى هى غذاء النفوس الكريمة وحياتها الصادقة ، وأما ماسواها فهو موت الحياة . وهنا نشير إلى أن الفنون كثيراً ما ترسم أسمى المثل الحيوية ، أنظر إليها حين تجمع على المسرح التمثيلى ترأىً عالم تغمرك به من جمال ذى فنون ، وجلال مهيب تنسى معهما دنياك الواقعة ، لأنك سموت إلى دنياك الكمالية . وكم من خطبة

غيرت مجرى الحياة ، وقصيدة رفعت خاملا ، وأخملت رفيعاً ، ولا تزال الأناشيد القومية سجل الماضى وآمال المستقبل والفن أولا وأخيراً هو بلسم الحياة إذا فقدته آلتها التهمها الحريق .

(٤) وهناك صلة أخرى بين الأدب وسائر الفنون الجميلة تقوم على ترددها جميعاً بين الطبيعة الموهوبة للفنى و بين الخضوع للقوانين التعليمية ؛ فالى أى حد يتمتع الفنى بحريته معتمداً فى إنتاجه على مواهبه الطبيعية وشخصيته المبتكره و إلى أى مدى يتقيـــــد فى إنتاجة بهذه القوانين المقررة فى أصول الرسم والموسيقا والتصوير والبلاغة والنقد الأدبى ؟ كثير من طائفة الفنيين والأدباء يفرون من قوانين الفن و يحولون الاعتماد على طبائعهم فى الانتاج الفنى مدفوعين بدعوى التجديد والابتكار أو الغلو فى فهم ما يراد بالحرية الفنية أو بنوازع الغرور الكاذب ، وكثيراً ما يهجم بهم ذلك على الزلل والأخطاء فيهزمون . وقد نرى بين الآثار الأدبية المعاصرة مظاهر شتى لنحو هذه العقيدة ولكنها مظاهر رعناء لم يكتب لها البقاء . كذلك نجد جماعة من المتحرجين الذين يجمدون عند مارسم القدماء لا يتزحزحون عنه ناسين أن الفن كالحياة ، كلاهما فى نمو دائم وتغير دائب ، فقاموا يزودوننا بمقاييس محدودة حاسمة لنحكم بها على الآثار الفنية التى لم تخلق بعد . ومن أغرب ما قرأت من ذلك قول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء : « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام ـ أقسام القصيدة ـ فيقف على منزل عامر و يبكى عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على الماء العذبة الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار » .

ونحن أمام هذين الطرفين لانفكر أن هناك مواهب فنية تستطيع بعد عهد قصير من أدوار الدراسة أن تكون طبيعة مواتية تثمر العجب فى الأدب أو سواه ومن الحق على النقاد أن يهيئوا لها سبل النبوغ ، ويقوِّموا منآدها لتسلك طريق الرشاد . وهم حين يفعلون ذلك إنما يتقيدون بهذه القوانين الفنية العامة المرنة التى اشتقوها من الآثار الفنية الخالدة فيقفون موقفاً وسطاً بين المحافظة على أصول الفن و بين إفساح المجال للعبقريات المبتكرة الحديثة ، أما أننا نهمل القديم خطأ واضح ، فيه تقطيع أوصال التاريخ من جهة ، وفيه إلغاء لجهود الفنيين السالفين من جهة ثانية . كذلك من العقم فى التفكير ومعارضة تيار الحياة أن نفنى فيما قال الأولون ورسموا و بخاصة فى مجال الفن لأن الفن صورة الذوق ، وهذا متغير بحكم الزمان والمكان . وليس من شأن الفن أن يكون عالمياً دائماً بل هو قومى فى أصله وطبيعته وغالبيته ، فلا نرى فيه هذه القوانين الحسابية والمنطقية التى تعلو على الزمان والمكان . وقد سلك الأدب العربى فى تاريخه هذا المسلك الوسط ، فلم يبق جاهلياً ولم يسبق عصوره التاريخية . ونحن حين ندعو اليوم إلى التجديد فانما نبغيه فى حدود إحياء القديم قبلا والمحافظة على أصول اللغة وطابع الأساليب العربية مع إلباسه روح عصرنا وشياته العقلية والوجدانية الجديدة . ولست أطيل هنا بذكر الأمثلة ، فهذا النثر الحديث أصدق مثال للأدب الذى يحتفظ بالأسلوب المستقيم ، والموضوعات التى لاتكون إلا فى القرن العشرين . هذا من الناحية العامة . وأما من الناحية الخاصة فنرى الفنى أديباً أو رساماً أو موسيقاراً إنما يبدأ حياته بتأثر الماضين وتقليدهم فيما تركوا من آثار ، و يكشف فى أثناء ذلك بعض أسرار الفن ، ثم ينزع بعدُ نزعاته الخاصة التى تطبع بطابعه الشخصى ولكن فى دائرة الأصول الفنية العامة . أرأيت أن المجددين من الشعراء والنقاد استطاعوا أن ينفصلوا عن القديم و يستأنفوا جهوداً طريفة فى كل شىء ؟ كلا ، ألا إن

الأدب كغيره من الفنون يتكى على الماضى و يتعلق بالآتى . ولـكنه بطىء التحوّل لشدة اتصاله بالمواهب النفسية ، والتقاليد الاجتماعية ، والتفاته إلى الماضى يأخذ عنه مقلداً أو مفتوناً ، وهذه عوامل يعوزها الأناة حتى تستحيل وتنشىء ملـكات جديدة يصدر عنها أدب جديد ، ولا سيما فى فن الشعر الذى يتخلف عن النثر فى الاستحالة والتجديد ، وسيأتى القول فى ذلك .

(٥) آخر ما أشير إليه من هذه الصلات بين الأدب وسائر الفنون الجميلة إنما هو هذه الصلة الوثيقة بين النظم والموسيقا . و إذا ذكرت الموسيقا فقد ذكرت قبلها أو معها فن الغناء ، فمن المعروف أن الانسان تغنى أول الأمر عواطفه بأصوات مبهمة لاتفصح عن معان و إن كانت ألحانها قد صورت حماسته وأفراحه حيناً ، ثم أتراحه وآلامه حيناً آخر . و بعد ذلك حلت الـكلمات محل هذه الأصوات فاختلط بذلك الفنان معاً : فن الغناء وفن الأدب ، وقد بقيا هكذا إلى الآن . فالأدب يضع الأنشودة ذات الأفـكار والعواطف ، و يسلمها إلى الغنـاء الذى يخضعها لألحان تلائم معانيها وأغراضها فيسمع الناس من ذلك فنيين ، فيطربون بالأنغام الغنائية و يعجبون بالنصوص الأدبية . ولـكن هذه الأنغام لم تقتصر على الحناجر والأفواه بل انتقلت إلى الأدوات الموسيقية المتخذة من القصب أو النحاس ، واستطاعت هذه الأدوات أن تفتنّ فى الألحان ابتـكاراً وتنويعاً حتى استطاعت أن تسجل الطبيعة وتمثل نزعات النفوس ، وتصور أعمق المعانى الاجتماعية ، وكان منها نوع ساذج اكتفى بالألحان الخالصة فى التعبير عن الوجدان الانسانى ، تستمع إليه فتعرف أى شعور يصور . ولرجال الموسيقى فى ذلك براعة فى تأليف الأدوار وتتويجها بالعنوانات كما هو ذائع معروف .

وهناك نوع آخر من الموسيقى مركب ، هو الموسيقى الأدبية ، ليس ألحاناً خالصة لـكنه ألحان لقطع أدبية تسمعها فتنتقل منها إلى ماوراءها من شعر منظوم .

ذلك حين يضع الأديب قطعة للغناء الموسيقى فيأخذها الملحن ويختار لها الألحان الملائمة ويسجلها فى المجسّدة (النوتة) ، ثم تغنى ، فتسمع الأدب والغناء . وأخيراً يعمد الموسيقار إلى ألحان هذه القطعة فيوقعها على العود أو القيثارة أو (البيانو) من غير غناء ، فتسمع الألحان فتعرف الدور ، وتقول : هذا نشيد مصر مثلا . وقد تشترك — وأنت بعيد — مع الآلة العازفة وتسايرها بإنشادك . وفى هذه الحال نجد الأدب ذاب فى الموسيقا ، واستحال فناً تلحينياً أو نجد الفنين قد اتحدا معاً فصارا أدباً موسيقياً أو موسيقا أدبية ، وتلك هى نهاية مايصل فناً بآخر .

وأما إذا قصدت حيناً إلى دراسة هذه المجسدة فإنك واجد أن القطعة الأدبية قد وزعت كلماتها بين الرموز والعلامات الموسيقية لبيان ألحانها التوقيعية ، وإذا تعمقت قليلا فى الدرس علمت أن أوزان العروض هى أوزان الغناء والموسيقا تعوزها دراسة خاصة لابد منها بعد هذا السكوت العميق . فقد آن الأوان لدرس العروض درساً موسيقياً وتبيُّن الصلة بين المقاطع الشعرية والغنائية حتى تذهب عن العروض جفوته ، وتكشف أصوله ، ويفتح أمامه سبيل التجديد النافع[1] .

---

(١) راجع : فن إنشاد الشعر العربى تأليف الأب أغسطى فكينى الفرنسيسى . ترجمة : أسطفان سالم الفرنسيسى والدكتور إسحق موسى الحسينى ١٩٤٥ بالقدس .

الفصل السادس

وظيفة الأدب فى الحياة

كانت نشأة الأدب ثمرة لحاجة الإنسان إلى التعبير عن عقله وشعوره ، شأنه فى ذلك شأن الفنون الرفيعة التى اهتدى إليها الناس واتخذوها وسائل مختلفة لتصوير مافى نفوسهم من أفكار وعواطف ولنقلها إلى غيرهم من القراء والسامعين الذين يعيشون معهم أو يخلفونهم فى الحياة . وإذا كان لكل من الفنون الرفيعة — كالرسم والتصوير والموسيقا — ميزته فى التعبير عن جوانب النفس ومواهبها وفى التأثير فيها فان الأدب يجمع أكثر خواصها ويزيد عليها الافصاح ، وسهولة التناول والذيوع وقيامه بأكثر مهام الحياة ومطالبها الثقافية والتهذيبية ، إذ يأخذ من الموسيقا ألحانها الظاهرة فى جمال الأسلوب ، ومن الرسم جماله ومعانيه التى ينهض بها الوصف الأدبى ، ومن التصوير — النحت — فكرته التى تعد فى الأدب هيكله وسنده الأول ثم يمتاز بالافصاح المبين والاتصال بكل ما فى الدنيا من معرفة وتمدين ورقى حتى إذا أنت تصورت الدنيا بلا أدب فقد محوتها أو محوت منها الحياة ، والانسان الذى يعوزه الأدب هو الذى أعوزته الحياة إذ كان الأدب صوتها العالى ولسانها المعبر ، والرابطة التى تضم بين أناسيها المبعثرة وأجيالها المتعاقبة .

وإذا شئنا أن نجمل القول فى هذه الوظيفة التى ينهض بها الأدب فى الحياة قلنا إنها تنحصر فى شىء واحد هو التهذيب ، فالتهذيب الانسانى يعد الغاية الأخيرة التى تنتهى عندها جهود الاداء ، والتى تمثل مهمة هذا الفن العظيم ، والتهذيب يتجلى فى أمرين اثنين : الإفادة والتأثير . وهذا أمر طبيعى فاذا كان الأدب

يصور العقل والشعور من ناحية الأديب المنشىء فانه لدى القارى يتجه إلى عقله بالثقافة والإفادة ، وإلى عواطفه بالتأثير فيبعثها قوية صادقة سامية تحرك الحياة والأحياء إلى أسمى غايات المجد والكمال .

وإذا كان لابد أن نشير إلى المظاهر التى تتجلى فيها وظيفة الأدب وفوائده فى الحياة فاننا نذكر الأمور الآتية لا على سبيل الحصر بل لأنها مثل إيضاحية ليس غير[1] .

(١) أول ما نذكر من ذلك وأجمعه لمهمة الأدب أنه يصور ما فى نفس الانسان من فكرة وعاطفة أو حادثة هامة لها مغزاها ، ثم ينتقل ذلك إلى نفوس القراء فيعينهم على فهم الحياة ويوقظ مشاعرهم السامية القوية ، ويوجه نفوسهم بذلك إلى الغايات الانسانية النبيلة ، وهذا هو ما اعتاد النقاد أن يسموه إيصال التجربة Experience إلى الآخرين[2] وطبيعى أن تكون هذه التجربة قيمة حادة تؤثر فى الأديب فتوقظ فكره وشعوره ثم تأخذ صورة معنوية جديدة تستدعى صورة لفظية ملائمة تنقل صورتها الأولى إلى نفس القارىء وتوجد هذا الشعور المشترك بين الناس فى غالب الأحيان . والأديب بذلك هو الرسول الذى يتلقى — بعبقريته — من الحياة جمالها وفلسفتها فيبلغها الناس فى قصته أو مقالته أو قصيدته ، ومن منا ينكر على أبى العلاء حين قال : —

رُحلٌ أشرفُ الكواكبِ دارا ... مِنْ لِقاء الردى على ميعادِ
والثريّا رَهينة بافتراقِ الشـ ... ـمل حتى تُعَدّ فى الأفرادِ

أنه أدرك منتهى الحياة وفناءها المحتوم ، وصوّر ذلك بما ينتظر الكواكب من قدر مقدور وأجل صارم فنقل إلينا فكرته الصحيحة وشعوره الأليم الساخر

---

(١) راجع literature and life ص ١ — ١١ .

(٢) لاسل آبركرمبي : قواعد النقد الأدبي ترجمة محمد عوض ، ص ٦٤ .

عميقاً صادقاً جميلا ، ودعانا إلى التفكير فى مصيرنا وترك الغفلة والغرور ؟ فهذه النظرة الأليمة ثمرة أمرين : هذا القدر النافذ وانفعال المعرى به وقد عرضت علينا فى هذه الرموز الخيالية واللفظية فكانت تجربة صادقت كفاءها من تصور جميل وأداء بليغ ، وتأثير قوى مفيد .

(٢) والأدب ينهض بعبء الثقافة العامة ويصل بها إلى طبقات الشعب متوسلا إلى ذلك بالكتب المؤلفة والصحافة السائرة ، والقصص الجميلة والدواوين العظيمة وكل وسيلة قلمية أو لسانية ، وهو يؤديها بطرق شتى ، فهى مرة حقائق خالصة فى العلوم والفلسفات ، ومرة حقائق تعينها العاطفة وتكسبها قوة وجمالا كما فى التاريخ والنقد ، وتارة عواطف قوية تسند إلى حقائق الحياة فتبعث فى العقول يقظة وفى الخيال سمواً وذلك شأن الروايات والقصائد والخطابة ونحوها من فنون الأدب الجميل . والأدباء بذلك معلمو الشعوب وحكماؤهم الروحيون الذين يرشدونهم إلى الحق ، ويهدونهم إلى الرشاد ، ويهبون لهم الحياة الصحيحة « ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أهمية الشعر — والأدب جميعه — فى رقى النوع البشرى وتهذيبه ، فقد عمل الشعر كما عملت العلوم على إسعاد الإنسان ، وكان للخيال الذى يتضمنه الشعر ما للحقائق العلمية التى تقررها العلوم من الأثر الكبير فى تغيير نظم الحياة وتكييف عقلية الآدميين ، فبينما الحقائق العلمية تكون مقررة القواعد ثابتة الأساس ، سهلة الاتباع ، إذا بالخيال الذى يتخلل ثنايا الشعر عون على أن يأخذ بيد الانسان ليرفعه من وهدة عميقة مظلمة إلى شاهق عال مرتفع ملىء بالنور والحياة حتى يمكنه أن يطل على سبل تقدمه ورقيه فاذا هو يراها شاخصة واضحة ، وإذا هو بتكرار النظر يعرفها ويتحقق مسالكها وإذا هو بعد فترة وجيزة أو غير وجيزة يضع قدمه على أبوابها فيسير فيها على طريق مستقيم »[1] وللحرص

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة poetry .

على اقرار الثقافة و إذاعتها فى جميع الناس تحقيقاً للمساواة أو تقريباً بين الطبقات مال كثير من الكتاب إلى الهبوط بالأساليب إلى مستوى الجماهير الجاهلة لتستطيع الفهم والأخذ بأسباب الرقى والتعليم .

(٣) والدين نفسه مدين للأدب بتقييد دعوته ، وشعائره والدعوة اليها و إذاعتها فى البشر أو الجماعات ، فكتبه المقدسة نصوص أدبية من الطراز الأول أو معجزات بيانية لاتسامى ، ورسله الكرام اعتمدوا على الأدب فى أداء رسالتهم و إبلاغها الأمم وكان منهم الخطباء والمجادلون الذين استولوا على مقاليد الفصاحة والبيان ، وتبعهم فى ذلك الصحابة والتابعون والعلماء فنهضوا بالدعوة والإرشاد والتدوين وبعثوا فى أساليب الأدب روحاً دينيا شعاره المحبة والسلام ، والتآخى والمساواة والشفقة ، فاستطاعوا أن يصفوا النفوس من أدران الرذائل وأن يسموا بها إلى درجات الطهر والفضيلة . وليس ينكر من كان بين الدين والأدب من صلات قديمة ، فان الأناشيد الدينية من فنون الشعر الجميل ، والدين والأدب يتأثران بالالهام ، ويقصدان إلى تهذيب الجنس البشرى ، ذلك عن طريق الشعائر الدينية المقدسة ، وهذا عن طريق العواطف الصادقة والأخيلة الجميلة ، وأقدر رجال الدين على النهوض بواجبهم هم الأدباء الذين أتوا من صدق الشعور وملكة البيان ما يعنيهم على إدراك الفضائل الدينية وبثها فى نفوس البشر . وقد قال سيدنا موسى عليه السلام يخاطب المولى جل جلاله لما بعثه إلى فرعون وقومه : «وأخى هارونُ هو أفصحُ منّى لساناً فأرسله معى رِدءاً يُصدِّقنى ، إنى أخاف أن يكذبون[1] » . وكان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أفصح العرب ، وكان القرآن معجزة الاسلام الأدبية وكان الأدب العربى من خير الوسائل لنشر الدين حتى أشرب روحه واتجهت دراسته إلى تعرف إعجاز القرآن واستنباط الأحكام

(١) القرآن الكريم س ٢٨ : ٣٤ .

الشرعية منه ، على أن تاريخ الديانات كلها حافل بذكر الأدباء الذين كان لألسنتهم وأقلامهم أبلغ الأثر فيما قصدوا من إصلاح وهداية .

(٤) والأدب عماد النهضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية يسجلها ويسايرها ويغذوها ويأخذ بيدها إلى سبيل النجاح ولذلك يكثر الشعراء والكتاب والخطباء في عصور الثورات والانتقال والاشراق الفكرى ، تلك العصور التى تؤذن بحياة جديدة وتصدم فيها العواطف والنزعات وتتزاحم الآمال والرغبات فاذا بالأدب صحيفة ذلك وتاريخه الحى الصادق ، تقرأه شعراً رائعاً ، وخطبا حماسية ومقالات تقريرية ، وقصصا تحليلية . لاحظ ذلك إبان ظهور الاسلام ، وقيام الدولة الأموية والعباسية وحول المذاهب الدينية والسياسية . وتقدم الحركات العلمية والفلسفية . والأدب هو الذى سجل مذاهب طرفة وأبى نواس وزهد أبى العتاهية وحكمة المتنبي وفلسفة المعرى وسخرية الجاحظ ، وهو الذى سجل نواحى النشاط المصرى الحديث والنهضة الفكرية فى الشرق العربى جميعه ، فصار مرآة هذه الحركات ومرجعها الصحيح « والحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن ونحن فى مصر وفى والشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة العربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب هذه الوجهة التى ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما فى عصرهما من صور الفن والأدب . ثم جعلت أوربة تستقل بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الأساس العلمى الذى وضعه ديكارت فى القرن السابع عشر . . . والأدب العربى المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة[1] » ولا ينكر أحد ما لأقلام الأدباء وألسنتهم من آثار خطيرة فى إذكاء الثورات ، والتأثير فى الحكومات ، وحرب الطغاة والمستبدين ، وثل

(١) هيكل : ثورة الأدب ص ١١ .

عروش الجبابرة ، وتغيير النظم والقوانين ، فذلك كله بارز الأمثلة فى حياتنا المعاصرة وفى أطوار التاريخ[١] ودليل على أن الأدب يحمل حقاً رسالة الحق والجمال والحرية والعدالة ويجاهد فى سبيل ذلك غير وانٍ ولا يائس حتى يضمن للناس حياة حرة عادلة كريمة هى الحياة الخليقة بالانسان . وربما كانت هذه المهمة خير ما ينهض به الأديب الذى يعرف وظيفته ويحترم نفسه ، ولا شك أن العلم والفلسفة عمدته فى تعرف الحق والجمال والحرية ، والأدب كثمرة جذورها العلم وهيكلها الفلسفة .

(٥) والأدب بعد ذلك وسيلة الاستمتاع بجمال الطبيعة والحياة إذ يجد فيه القارىء ما استتر وما ظهر من جمالها مصوَّراً مفسراً ، وهو مسرة النفس وسلوى الحزين يجد فيه الأديب متنفساً لهمومه وأكداره ويجد فيه الفرح صورة لشعوره ويظفر منه الإنسان بمتعة قل أن يجدها فى غيره من الفنون سهولة وشمولا وصراحة وقد قال هجل : « حتى الدموع على الأخزان أعوان وحتى رموزها فيها للشجى سلوان لأن الانسان إذا كظّه الحزن تلمس مظهراً لذلك الألم الباطن ولكن العبارة عن هذه الإحساسات بالألفاظ والصور والألحان أوقع فى القلب وألطف فى النفس وأروح للصدر . ولقد فطن القدماء إلى نفع ذلك فكانوا يقيمون المآتم فيرى الحزين غيره ينطق بلسان كمده ويحمله كثرةُ ما يسمع وترديدُ ذكر ما يفجع على التفكير فيه فيروّح عنه ذلك ويمسح أعشار قلبه بيد السلوان ولذلك كانت غزارة الدمع ووفرة المنطق خير وسيلة لاطراح أعباء الهموم عن عاتق الشجى والترفيه عن القلب المثقل بالأوجاع »[٢] .

(٦) وقد أصبح الأدب بعدما تهذّب فيه فن القصة خاصة ، وسيلة فذة لدراسة الحياة الاجتماعيه والنفسية ، يرى فيه القارىء ما بين الأفراد من صلات

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ . (٢) الشعر للمازنى ص ٤٢ .

ووفاق وخلاف ويشهد سلطان الغرائز والطبائع قوياً غلاباً فى أكثر الأحيان ويشعر بنفوذ الحب وقوته فى عهـد الشباب ويفهم بأسلوب عملى مثل تعدد الشخصية الفردية أو انقسامها ، ويأمن به الأديب مضار التصريح حين يجرى حواراً بين أشخاص رمزيين ويصل بما يريد إلى أعماق النفوس معلماً مؤثراً .

وخلاصة القول أن الأدب بمعناه العام وسيلة الحياة الانسانية المهذبة ، يصل بين الأفراد والجماعات ، وبين العصور المتوالية والأجيال المتعاقبة ، ويسمو بالجنس البشرى إلى مستوى فكرى وشعورى وخلقى جليل .

الفصل الثانى

العوامل المؤثرة فى حياة الأدب

— ١ —

إذا صح ما قيل من أن الأدب صورة للحياة الإنسانية ، وسجل لتاريخها المطرد ، ومعرض لبيئاتها المختلفة ، يستحيل باستحالتها ، وتنطبع فيه آثار عقائدها الدينية ، ومظاهر حضارتها السياسية والعلمية والفنية حتى يعود حكاية لأطوارها ومرجعاً لماضيها — كان من الحق علينا أن نتبين هذه الأسباب التى تغير الحياة وتنشىء أطوارها المتعاقبة ، فيتغير الأدب وتنشأ أطواره أو تاريخه تبعاً لذلك . وإذا رجعنا إلى الأسباب التى يسردها الباحثون ، والتى من شأنها أن تغير فى الحياة وجدناها كثيرة متنوعة ، ولكننا نستطيع أن نجمع كل طائفة منها إلى أصل واحد ، أو نردها جميعاً إلى سبب رئيسى واحد هو البيئة ، على شرط أن نفهم من البيئة معناها الواسع الذى يتناول العوامل المكانية والزمانية الأصيلة والطارئة التى تتوافر فى بقعة ما ويتكون منها جميعاً مزاج هو ما يسمى البيئة أو الهيئة الاجتماعية التى تطبع كل ما يتصل بها بطابعها الخاص ، ثم يكون الأدب الذى يصورها تاريخها الصادق يحكيها هادئة مستقرة أو ثائرة مضطربة ، تنزع إلى المثل الصالحة أو تتردى فى مهاوى الذلة والانحطاط ؛ ومع ذلك فلنذكر هنا أهم هذه العوامل مشيرين فى إيجاز إلى مثلها فى تاريخ الأدب العربى ، وفيما اتصل به من آداب :

(١) من هذه العوامل المكان ، وهو الإقليم الذى يعيش فيه الشعب عيش قرار واستيطان أو يضطرب بين حدوده ، فتتأثر حياته الحسية والمعنوية

بطبيعة هذا الإقليم وخواصه فإذا ما عبر الأدب عن هذه الحياة كان فيه طبيعتها وأحوالها الاجتماعية وآثارها فى نفوس الأفراد ومن هنا اختلفت الآداب باختلاف الأقاليم ، فاذا انتقل الشعب إلى بيئة أخرى تخالف بيئته الأولى وقضى فيها مدة كافية أو نشأ منه جيل جديد تربى فى ظل هذا المكان الجديد ، تغير كثير من نظم حياته وملابساتها فيأخذ فى تصويرها بأدب آخر يختلف عن السابق بمقدار ما حدث فى حياته من استحالة وتغيير . هذه الأمة العربية كانت فى الجاهلية تحيا حياة بدوية صحراوية تمتاز بالفقر والخشونة والضرب فى جوانب هذه الفيافى ، و بالعصبية القبلية ، والحروب المطردة ، والبداءة الثقافية ، فكان الأدب أو الشعر الجاهلى خشن الألفاظ ، بدوى الخيال ، يتخذ عناصره من الجبال والوعول والدواب والرمال ، أولىّ العواطف ، سطحى الأفكار ، أهم فنونه فخر وحماسة وهجاء ووصف لمشاهد الجزيرة العربية وحوادثها الداخلية ؛ من رجاله أمثال الشنفرى وتأبط شراً والسُليك بن السُلكة ، هؤلاء الصعاليك الذين مثلوا نزعات جاهلية طريفة لاتوجد إلا فى مثل الصحارى العربية . فلما زايل العرب بلادهم إلى غيرها كالشام والعراق ومصر والأندلس وخضعوا لمؤثرات طبعية جديدة ووقعت أبصارهم على مشاهد أخرى ، تأثر الأدب عامة فلان أسلوبه ، وتجددت أخيلته ، واتسعت أغراضه ومعانيه ، ثم تجده فى العهد العباسى يعود فيتغير باختلاف طبيعة هذه الأقاليم وما امتاز به كل منها ، فأدب عراقى ، وآخر شامى ، وثالث مصرى ، ثم الأدب الأندلسى ولكل منها طابعه المكتسب أو لا من طبيعة الإقليم وميزات البيئة .

(٢) الزمان — يلى ذلك انتقال الأمة من طور إلى آخر أو تدرجها من البداوة إلى الحضارة فذلك يغير نظم الحياة عندها ، فتستقر بعد الاضطراب وتغنى بعد الفقر ، وتأخذ فى التفكير الهادىء والافتنان فى وسائل العيش ، وتغيير كثير من تقاليدها الاجتماعية ، وربما فشا فيها اللهو والعبث ، وانحلت مقاييس الأخلاق فينشأ عن

ذلك حياة أخرى عصرية تمتاز بسعة المعارف ، وجمال الخيال ورقه العيش وصفاء الذوق . ولذلك كله أثر فى الأدب ، فاذا موضوعات جديدة ومعان مبتكرة عميقة وأخيلة بديعة ممتازة وأساليب عذبةموسيقية ، تمثل كلها أدباحضريا لحياة حضرية . تلاحظ ذلك حين توازن بين الأدب العربى فى العصر الأموى و بينه فى العصر العباسى أوفى عصرنا الحديث ، فان هذين الأخيرين امتازا بما لابس الحياة من ترف شامل ومناظر جميلة وفنون مختلفة ، وحرية اجتماعية كانت لها آثارها فى هذا الأدب الجديد .

والتقدم العلمى من مظاهر الحضارة وآثارها اللازمة ، وهو ذو آثار عدة فى الأدب ، فهو من جهة يزيد المعانى كثرة وعمقاً ، ويسبغ عليها التنسيق والتحديد ويبرىء الأدب من الأخطاء ويكسبه صفة ثقافية نافعة كما تجد ذلك عند الجاحظ وابن المقفع وعند أبى تمام وابن الرومى والمتنبى والمعرى ، وعند المعاصرين من الكتاب والشعراء . وهو من جهة ثانية يقوى النثر ويأخذ بيده ، وربما يوجده أو يوجد منه أنواعاً جديدة ، وذلك يشرح لنا تقدم النثر فى القرن الثالث الهجرى ومشاركته الشعر فى بعض فنونه ونهضته بتدوين العلوم والفلسفة ، واعتماد الدولة عليه فى شئونها السياسية والإدارية والاجتماعيه . ذلك لأن العلم استقر ، وساعد فى نضج التفكير واحتاج العقل أن يدون ثماره فكان النثر هو الوسيلة الصالحة لذلك . وثالثاً نجد انتشار العلم بين الطبقات يقرب بينها ، ويعدها للانتفاع بالأدب بعد ما كان هذا وقفاً على طبقة المستنيرين والسراة ، فتتسع دائرة الأدب ، ويضطر المؤلفون إلى إشباع هذه الرغبة بين كل الطبقات فتنشأ فنون ملائمة كالقصة ، والمقالة ، والحوار ، وتتنوع الأساليب إرضاء لحاجة الجماهير ويبلغ الأدب بذلك أقصى مداه . وأمثلة ذلك واضحة فى عصرنا الحالى إذ يتمتع بالأدب كل من يحسن القراءة أو الاستماع .

(٣) مسألة الجنس ، وحينما نذكر لكل جنس خواصه فى التفكير والتعبير فانما تتناول المسألة من قريب ، والظاهر أن هذا الاختلاف الذى نلحظه بين الشعوب فى المواهب النفسية كان ثمرة للبيئة ولعوامل متلاحقة أثرت فى كل جماعة فأكسبتها خواص تخالف فيها الجماعات الأخرى ، وطال العهد على ذلك وانتقل بطريق الوراثة إلى الأجيال المتعاقبة فصار كأنه فارق خُلقى بين هذه الأجناس البشرية ، فالأمر راجع فى أصله البعيد إلى عوامل مكانية وزمانية وراثية قديمة العهد وآية ذلك أن الاختلاط بين الأجناس المختلفة إذا طال وقوى يقرب بين أفرادها فى طرق التفكير وفى نظم الحياة ويكاد يمحو هذه الفوارق الظاهرة . على أن ما توافر الآن من سهولة المواصلات الحسية وتمازج الثقافات الانسانية بالترجمة والتعليم أخذ يضعف من شأن المسألة الاقليمية والمسألة الجنسية أيضاً . والذى يلاحظه الباحثون أن بعض الأمم القديمة كالعرب طبعت على دقة الحس وصفاء الطبع وحدة الذكاء فبرعت فى الشعر وكان أكثر مادتها الأدبية القديمة فلما تحضرت وتهيأ لها النضج العقلى ارتقى النثر وكان له منه حظ موفور ، ولكن اليونان امتازوا بنضج شعورى وعقلى باكر فكان لهم نبوغ ممتاز فى الشعر والنثر جميعاً فى حين أن الرومان امتازوا فى فنون الحرب والسياسة والاختراع . كذلك يلاحظون أن الجنس اللاتنى فى جليه يميل إلى الرقة ولين الجانب والتشبث بالحرية والعناية بالفنون الجميلة ، والفرنسيون والايطاليون يمتازون فى ذلك عن الجرمانيين ، وهؤلاء يميلون إلى القواعد والقوانين فى كل شىء ومحاولة إخضاع الفنون لأصول ثابتة تشبه الأصول العلمية[1] .

ومهما يكن الأمر فليس من شك فى أن الآداب تختلف باختلاف الشعوب وهو اختلاف يتناول طريقة التفكير فى ترتيب المقدمات والحيطة فى الأحكام

(١) أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ١٣٤ .

ثم طريقة وعناصر التخييل المتأثرة حتما بالمشاهد الطبيعية القديمة والحديثة لكل شعب وأخيراً طريقة التعبير التى تخضع للعنصرين السالفين ، ولا يزال أساتذة اللغه الانجليزية والفرنسية فى المعاهد المصرية يوصون طلبة الانشاء أن يفكروا بالعقل الانجليزى مثلا قبل أن يعبروا ، وبذلك تستقيم لهم العبارات الانجليزية . ومؤرخو الأدب العربى يلاحظون أن الآداب الفارسية ذات شخصية واضحة وأنها أثرت فى الإنشاء العربى كثيراً ، كما أن الأدباء من الفرس والروم الذين كتبوا باللغة العربية كانوا شيئاً طريفاً ممتازاً كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن الرومى وأبى تمام إن صح ما قيل عن أصله الرومى[1] .

(٤) ومن أهم العوامل ما يحدث بين الشعوب من اتصال ، وهذه الصلة تكون صلة حربية وتكون صلة سلمية بالاختلاط والمصاهره والاتجاه ونحوه . وتكون عقلية بالترجمة ودراسة اللغات الأجنبية وما دون بها من علوم ، وفنون ، وآداب وفلسفات ؛ فان الحروب تظهر كل أمة على كفاية الأخرى ، وتصل بين الغالب والمغلوب وينتفع كل بما عند الآخر من آثار الحضارة ، وقد يكون المغلوب أبلغ تأثيراً فى الغالب ، ولما فتح الرومان فى بلاد اليونان اكتسبوا من حضارتهم ما ظهرت آثاره فى آدابهم ، كذلك أفاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد التى فتحوها فأثرى الأدب العربى من ذلك كثيراً ، على أن الحروب بين الشعوب تنمى فنوناً حماسية وربما توجد الشعر القصصى ، فليست الإلياذة والشاهنامة وقصة عنترة وسيرة بنى هلال والأميرة ذات الهمة إلا من آثار الحروب .

كذلك الاتصال السلمى بين الشعوب يسمح لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية والنظم الاجتماعية كما تتبادل السلع التجارية ، وتتواصل بالجوار والمصاهرة ، وهذا واضح الأثر فى تسرب المدنيات المجاورة إلى العرب الجاهلين ، ونفوذ ثقافتها إليهم

(١) أخبار أبى تمام للصولى ، ص ٢٤٦ .

حتى أثر ذلك فى الأدب الجاهلى تأثيراً ما[1] وليست الأمة العربية بدعاً فى هذا لأنه قانون طبعى تحققه الحياة الاجتماعية وميل الناس إلى المحاكاة والتقليد لما تراه نافعاً . وأما الصلة الناشئة عن الترجمة والنقل ودراسة اللغات والمعارف الأجنبية فالأمر فيها أيسر من أن تحتاج إلى شرح أو تمثيل لأن الأمم المتحضرة يأخذ بعضها عن بعض ، ويقلد بعضها بعضاً ، وتتم كل مابدأت الأخرى ، وتكمل نفسها بما عند غيرها من العلوم والفنون والمخترعات والنظم ، وتجتهد فى ترجمة ذلك ودراسته ، وإرسال البعوث إلى المعاهد العلمية وتعليم اللغات الأجنبية حتى أصبحت المعارف والآداب حقاً شائعاً بين الأمم وأخذ كل أدب يستفيد من غيره ، ودخلته عناصر شتى أفادها الأدباء مما يقرءون وصار من الصعب الآن رد كثير من العناصر إلى مصادرها الأولى . هذا فى العصر الحديث ولسنا فى حاجة لنعيد هنا ماقيل من أثر الاتصال بين العرب و بين والفرس والروم والهنود فى الأدب العباسى فذلك معروف مشهور.

(٥) الدين — ولا يشك أحد فى سلطانة القوى على الآداب ، وربما كان الباعث الأسبق على ابتكار الأناشيد الدينية التى رتلتها الجماعات البشرية فى المعابد . وكثير من الديانات صحبه كتاب مقدس يعد مثالا أدبياً ممتازاً ؛ فالقرآن الكريم معجزة الادب العربى ، والتوراة والإنجيل يعدان فى لغتهما من آيات البيان ، وللدين كذلك تأثير على الآداب غير مباشر ، فقد أوجد فنوناً جميلة دينية حفلت بها عصور التاريخ وظهرت فى المعابد والكنائس والمساجد وعدت عن أروع ما أبدعت قريحة الانسان ، والدين اليونانى أوجد التمثيل ، والدين الإسلامى أوجد التصوف ، ونهض بالخطابة ، وأثر فى العلوم الدينية والبلاغية حتى كان فهم القرآن وتعرف اعجازه غاية كثير من العلوم الإسلامية . على أن الدين فوق ذلك يهذب النفس ويرقق الشعور ويسمو بالانسان إلى مستوى خير

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين ، الفصل الثانى .

فاضل وبما جعله إنسانياً عاماً ، وذلك لا يمثله إلا الأدب .

(٦) والحالة السياسية ذات أثر بعيد فى حياة الأدب ويتراءى ذلك فى عدة نواح : منها أن النهضة السياسية العامة تنهض بالخطابة لتأييد الحرية وإثارة الجماعات وتنبيهها إلى حقوقها المسلوبة وكرامتها الضائعة كما حدث فى النهضة المصرية المعاصرة التى أخرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . كذلك يشترك الكتاب والشعراء فى إمداد هذه النهضة وإذكائها لتبلغ مداها . وذلك يستلزم حرية مكفولة تطلق الألسنة والأقلام ، فنجد الشعر الحماسى والوطنى يقوى ويزدهر كما تجد المقالات والمؤلفات التى تتناول الحريات وحقوق الانسان والنظم الدستورية وما إلى ذلك . ومنها أن النظام الاستبدادى العنيف يخفت صوت الخطابة ، ويذهب بالأدب الصريح الصادق الذى يصور الآراء السديدة ويمثل الحرية الفردية والاجتماعية ويحل محل ذلك أدب زائف ومدائح منافقة وآثار نفعية تخدم النظام القائم ، خوف السلطان وتملقه . ومنها أن الأحزاب السياسية كثيراً ماتتنافس فى السلطان الأدبى أو الحكومى فينشأ بين رجالها حوار يفيد منه الأدب حياة نشيطة ، فالمسائل تدرس دراسة عميقة شاملة والأفكار تدق وتتحرر ، والأساليب تبتكر وتتنوع ، والناس بين هذه المناقشات يدرسون ، ويتعلمون ، ويعرفون الحق والباطل . ولكم ملئت أنهار الصحف المصرية فى العهد الأخير بمناظرات قيمة تتعلق بالحياة السياسية للبلاد . . والسياسة الأموية أنتجت الغزل فى الحجاز ، وقوت فنون الهجاء والسياسة فى القرن الأول ، كما أن استقلال الولاة فى القرن الرابع أنشأ الآداب الاقليمية فى الأقطار الاسلامية .

(٧) وهناك أسباب أخرى تفيد فى الأدب نذكر منها النقد الذى يأخذ بيد الأدباء ويرشدهم إلى المناهج الصالحة ، وتشجيع الأدباء بعرفان فضلهم ومعونتهم بالمال والانتفاع بآثارهم ، والابتكار الذى ينهض به كبار المنشئين ليفتحوا فى

الأدب موضوعات أو أساليب طريقة تصبح سنة متبعة ، وكذلك التقليد وهو نافع للأديب المبتدىء الذى يترسم خطا السابقين حتى إذا نبه شأنه ابتدع ماشاء ، كذلك تقليد الآثار الأدبية الممتازة سواء ذلك فى الأدب القومى أو الأجنبى .

وخلاصة الموضوع أن أى أثر فى الحياة يبدو فى الأدب إذ كان الأدب ترجمانها الدقيق العميق وتاريخها الصحيح .

— ٢ —

وهنا يعرض لنا هذا السؤال : أيهما أطوعُ لعوامل التطور ، وأسرعُ استجابة لأسباب التجديد : الشعر أم النثر ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نلاحظ أن الأدب بطبيعته بطىء التطور بالنسبة للعلم ، فالأول أشد اتصالا بالعواطف النفسية ، والأذواق الفنية وهذه بطيئة التطور تعوزها تجارب شتى ، وأوقات طويلة حتى تستحيل وتنشىء ملكات جديدة فى التصوير والتعبير لذلك كانت الطفرة فيه شذوذاً ، أما العلم ، وهو ثمرة العقل فانه سريع التحول ، مستعد لنسيان الماضى والانفصال عنه وترك تقليده إذا ماظهر على جديد صائب ، فاذا لاحظنا أن الشعر أدخل فى باب الفنية من النثر استطعنا أن نقول إن النثر أطوع لعوامل التطور ، وأسرع خضوعاً لأسبابه ، وأوضح تمثيلا لعصوره فى تاريخ الأدب .

وهذه الظاهرة ترجع إلى أمور : —

منها أن النثر فى الأصل لغة العقل يقرر قضاياه ويسجل نتائجه ، والشعر لغة العاطفة غالبا يصورها ، ويثيرها ، والعقل أسرع إلى التطور وأقبل لعوامل الرقى لأنه تفكير نظرى غير مقيد بعرف ولا تقاليد بخلاف العاطفة التى تتجاذبها تقاليد طبعية واجتماعية تبطىء سيرها ، وتجعل ثمارها — كالأدب والموسيقى والرسم والتصوير — أدل على شخصية الشعوب ، ونتيجة ذلك أن النثر — لغة العقل — أسرع إلى الاستحالة من الشعر .

ومنها أن الشعر أدخل فى باب الفن من النثر ، والفن يقوم على الماضى إلى حد كبير ، يتأثر نماذجه ، ويتمثل آثاره بخلاف العلم فانه يتخذ موضوعاته من الواقع الجارى وصلته بالماضى صلة متابعة واستمرار أكثر منها أخذاً واستلهاماً ، فالشعر يلتفت إلى الوراء ، والنثر يلتفت إلى الأمام ، وذلك يدفع بالنثر قدماً بقدر مايقف بالشعر ، فالأوزان ثابتة غالباً ، والصور الخيالية لاتكاد تتغير ، والقصيدة كما هى ، والعبارات يصيبها جمود فى كثير من الأحيان .

ومنها أن الصورة الفنية للشعر بطيئة التحول لبطء التحول النفسى للشعراء ، ولهذه الخصائص الموسيقية الثابتة ، والتقاليد الموروثة ، والأخيلة المبلورة ولكن الأمر فى النثر أيسر لتحلله من ذلك ، ولحرية التصرف فى أساليبه ، لذلك تجد فى التاريخ الأدبى اختلاف العبارات والشخصيات عند الكتاب أكثر منه عند الشعراء لحبس الشعراء فى دائرة التقليد والقيود .

وهناك أن الشعراء لاعتزازهم بمواهبهم الفنية لايعنون كثيراً بالثقافة عناية الكتاب الذين يتعلقون بها بحكم اتصالهم بالحياة الجارية ، وذلك يجعل الكتاب أشد مجاراة للحياة ، وأقبل للديموقراطية ، وأما الشعراء فيخضعون لارستقراطية نفسية وفنية تعوقهم عن مسايرة الواقع السريع ، لذلك كان المثقفون من الشعراء كأبى تمام ، والمتنبى ، والمعرى هم الذين حاولوا التجديد فى الشعر ومجاوزة (عموده) الذى تشبث به المحافظون .

ومرد ذلك كله أن الشعر هو الصورة الأولية الطبعية للحياة الإنسانية ، وهى صورة شعورية ، أزلية أبدية ، لاتنحنى لأطوار الدنيا كما تنحنى الأمور الفلسفية ، والعقلية الطارئة ، والتى لاتستقر على حال ، وإنما تأخذ كل يوم صورة جديدة تمليها عليها الحوادث والمدنيات .

هذا هو ، بإيجاز شديد ، بيان المسألة ، ومن أخذ فى بسطها وتطبيقها على التاريخ الأدبى ظفر بشواهد شتى ، ومجال عريض .

الفصل الثامن

كيف ندرس الأدب ؟

كان من آثار النهضة الحديثة فى مصر والشرق العربى أن يسلك دارسو الأدب العربى نفس المسالك التى انتهجها الغربيون فى دراسة آدابهم وأن يخضعوه لبعض الطرق العلمية التى خضعت لها الآداب الأجنبية منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ، وكان الفرنسيون من أسبق الأمم وأحفلها بهذه الدراسات العلمية التى مثلها ڤيلمان Villeman بعقده صلة وثيقة بين الأدب والتاريخ ، واتخاذه التاريخ وسيلة لفهم الأدب وتفسيره وتعليل مزاياه فى بيئة ما إذ كان الأدب صورة للحياة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها ، ثم سانت بيف Sainte Beuve الذى اتخذ من سير الأدباء وتعرف حياتهم الخاصة سبباً إلى فهم آثارهم ونقدها ما دامت هذه الآثار صادرة عنهم مباشرة تمثل نفوسهم ومقدار تأثرها بعوامل البيئة الفكرية والسياسية والاجتماعية التى خضعوا لها ، ثم تين Taine الذى غلا فطبق على الأدب مذهب الجبريين وجعله ثمرة محتومة لعلل ثلاثة : الجنس ، والزمان ، والمكان ؛ فالنصوص الأدبية — ومنشئوها — خلاصة طبعية لخواص الشعب الذى أظلها فى زمن ومكان بعينهما ، ورجال الأدب هم الذين يمثلون روح عصرهم بما يقولون أو يكتبون ، وعلى دارس الأدب أن يتفهم أولا هذه العوامل الثلاث ليستطيع فهم الأدب وإرجاع خواصه إلى مصادرها الأولى ثم يأتى فرديناند برونتيير Ferdinand Brunetière فيأخذ بمذهب تدرج الأنواع ويطبقه على الفنون الأدبية من شعر[1] وكتابة وخطابة وحماسة ونسيب ووصف : كيف نشأت

(١) راجع للمؤلف تاريخ الشعر السياسى وتاريخ النقائض فى الشعر العربى .

واستحالات على مر العصور ، وكيف تأثر لاحقها — على يد الأدباء — بسابقها وكيف يؤثر الحالى فيما قد يليه . ومؤرخ الأدب عنده ملزم أن يدرس سلسلة المؤلفات والأفكار المتلاحقة والفنون المتغيرة دراسة ترينا كل شيء منها متأثرا ومؤثرا فى آن واحد ولكن جول لميتر Jules Lemaitre يثور فى هؤلاء جميعا ويعمل لتلخيص الأدب من قيود العلم التى تتناسى ما فيه من جمال فنى هو خير ما فيه ، ثم يقف بالأدب عند ما يبعثه فى نفس القارىء من تأثير وانفعال عقب قراءته أيا كان هذا التأثير ودواعيه ؛ لا يعنى بعد ذلك بأحكام يصدرها أو قوانين يدونها. فالأدب فن والنقد مثله لايتسنى لصاحبهما الخلاص من ذوقه وشخصيته [١] ولايزال الأدب يعانى فى تاريخه ونقده آثار هذا الصراع الدائم بين مذاهب العلماء ونزعات الفنيين ، وسرت هذه العدوى إلى غير الفرنسيين وإن لم تتأثر مذاهبهم تأثرا دقيقا . وسنحاول هنا الإلمام بأهم الطرق التى يهتدى بها المؤرخون والنقاد ، لنتبين فائدتها للأدب ونواحى قصورها عن بلوغ الغاية . ثم نعرف أيها ألصق بموضوع هذه الفصول وأهم هذه الطرق ثلاثة : —

(١) الطريقة التاريخية The Historical method

(٢) الطريقة الشخصية أو دراسة السير The Biographical method

(٣) الطريقة النقدية [٢] The Critical metho

أولا — الطريقة التاريخية

تقوم هذه الطريقة على الصلة الوثيقة بين الأدب والتاريخ ، فأدب أمة من الأمم يعد تعبيرا صادقا عن حياتها السياسية والاجتماعية ، ومصدرا مهذبا من

---

(١) راجع فى هذه المذاهب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف وفى الأدب الجاهلى لطه حسين .

(٢) رجعنا فيما يلى من هذا الفصل إلى كتاب أصول النقد الأدبى تأليف Winchester ، الفصل الأول ومصادر أخرى .

مصادرها التاريخية ذلك بأن الأدب يلم بروح الحوادث والأطوار المتعاقبة فيصورها ثم يتأثر بها فيستحيل فى موضوعاته وفنونه وأساليبه تبعاً لما تستدعى الأحداث . وتقضى به الشئون الجارية . تجد شواهد ذلك فى القرن الأول الهجرى فشعراء الخوارج والشيعة وبنى أمية تركوا فى آثارهم سجلا للحياة السياسية ، وكان الشعر الغزلى مثالا صادقاً للحياة الاجتماعية فى بلاد الحجاز ، وكانت الخطابة دليلا على مايعانيه الحكام والخلفاء من سياسة عنيفة حيناً ، ولينة مواتية حيناً آخر وكذلك الشأن فى أدبنا المعاصر إذ قام الكتاب والشعراء والخطباء فدونوا فى منشآتهم الرائعة تاريخ نهضتنا الحديثة ، وتاريخنا الجديد . وعكس ذلك صحيح ، فاذا كان الأدب عبارة عن حياة الأمة فى عهودها المتوالية فان التاريخ كان مادة الأدب وعاملا خطيراً فى استحالته وتقدمه ، فكيف كان ينشأ الشعر السياسى أو الهجائى أو الغزل فى القرن الأول لولا هذه الأسباب السياسية والاجتماعية التى دفعت بالشعراء إلى هذه الفنون ؟ وكيف يكون للخطابة والخطباء هذا الخطر الخطير لولا ما كان أمام الساسة من معارضة حسية ومعنوية وثورات عنيفة استدعت هذا الكلام العام الذى أغنى أحياناً عن الجيوش والسلاح ؟ هذا واضح فى النصوص الأدبية المتصلة بالشئون العامة مباشرة كشعر جرير والأخطل والفرزدق وقطرى بن الفجاءة والكميت وخطابة معاوية وزياد والحجاج .

ومع ذلك فان غير هؤلاء ممن لم يشتركوا فعلا فى هذا الصراع السياسى كانت آثارهم الأدبية متأثرة بهذه التيارات أيضا ، فالغزل نفسه متأثر بالسياسة وثمرة من ثمراتها ، والهجاء الذى قام بين شعراء القبائل قد أمدته الحياة الاجتماعية والسياسة بما أذكاه وأبعد صيته ، ولم يسلم القصصى التاريخى والدينى من دوافع سياسية نهضت به ، فسواء أكان الأدب متصلا بالحوادث مباشراً أم غير مباشر فهو لابد متأثر بها مؤثر فيها لامفر من ذلك .

هذه الصلة التى أشرنا إليها تنفعنا فى الدراسه الأدبية من عدة وجوه :

أولا — أن معرفة التاريخ السياسى والاجتماعى لازمة لفهم الأدب وتفسيره ولتعليل كثير من موضوعاته وأطواره والاتجاهات العامة التى يجرى فيها الأدب ويسلكها الأدباء ؛ فنهضة الشعر إبان ظهور الاسلام ثمرة لهذه الدعوة الدينية التى قسمت الشعراء قسمين : مدافع عن الدين ومهاجم له ، ونشأة الأحزاب السياسية بعد وقعت صفين أدت إلى توزيع الشعراء بين هذه الأحزاب ، وضعف الوازع الدينى أيام العباسيين جرأ أبى نواس وشيعته على هذا الأدب الماجن وشعر الخليع ، ونهضتنا المعاصرة أخرجت هؤلاء الكتاب والخطباء الذين سايروها أحراراً ، أو فى ظل هذه السياسية القائمة .

وكثيراً ما يصعب أو يستحيل فهم نص أدبى قبل دراسة تاريخية عريضة ؛ فهذه سينية البحترى لايمكن فهم كثير من موضوعاتها ومراميها إلا بعد معرفة هذه الصلات القديمة بين الفرس والعرب وما كان للفرس من مجد قديم فى نواحى الحياة ، وكيف أعانوا العرب قديماً على الأحباش ، وحديثاً أعانوا أو أقاموا الدولة العباسية ، ثم ما كان من صراع بين الفرس والروم فى جاهلية العرب ، هذه الجاهلية الفقيرة المجدبة من العلوم والفنون ، وأخيراً ما كان من مقتل المتوكل بتدبير ابنه ، وغضب البحترى ورحلته إلى مدائن كسرى حيث آثار القصر الأبيض وإنشاده هذه السينية الخالدة . ونحو ذلك يقال فى الهمزية وأبى الهول وتوت عنخ آمون لشوقى وفى خطابات سعد زغلول ومقالات أمين الرافعى وغيرهم كثير .

ثانياً — أن الدراسة التاريخية تفسر لنا الكتب التى تؤلف فى فترة ما ، وفى ظل أحداثها السياسية وأوصافها الدينية أو الخلقية أو الاقتصادية إذ كانت هذه الكتب فى موضوعاتها وأساليبها ووجهات نظر أصحابها ثمرة لهذه البيئة التى

تحوطها . خذ مثلا لذلك كتب الجاحظ ولا سيما رسائله فلا محيص لنا من دراسة تاريخ القرن الثالث دراسة علمية تتناول الثقافات التى امتزجت فيه بين المسلمين ومثلتها كتبه المختلفة وبخاصة الحيوان والبيان والتبيين ، ودراسة اجتماعية ، ودراسة سياسية تُعنى بمكانة الخلفاء ومقدار سلطانهم ، ثم هذه الفرق السياسية والدينية ، والنزاع بين العرب والفرس ، وبين العرب والأتراك ، وبين الأسر العربية نفسها . كل ذلك لازم لفهم رسائل الجاحظ واتخاذ قلمه أداة يحتج بها كل فريق . فكان هذا الكاتب الخطير يبيع أدبه لكل مشتر ، وكان يجود هذا الأدب ما استطاع وعلى الرغم من المواقف المتناقضة التى كان يحمل عليها جاداً أو ساخراً . وتستطيع فى ضوء تاريخنا الحديث تفسير أمثالنا مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين ، وعلى هامش السياسة لحافظ عفيفى ، وتاريخ الجمعيات الوطنية لعبد الرحمن الرافعى . وكل هذه الآثار التى استدعتها حياتنا الحديثة فى العلم والسياسة والاجتماع ؛ فالكتب صدى لما يجرى حولها من أمور ، ونبات لهذه التربة المعنوية التى أثمرتها .

ثالثاً — أننا معرضون للخطأ فى فهم وتقدير آراء الأدباء وأفكارهم وأخيلتهم مالم نلاحظ صلتهم بعصورهم ، ونلم بالمعارف والمذاهب السياسية والعلمية والفلسفية وبالمقاييس النقدية والخلقية التى كانت سائدة فى تلك العصور والتى كان الشاعر أو الكاتب يجاريها أو يعارضها ؛ فآثاره الأدبية خاضعة لها بأسلوب إيجابى أو سلبى فزهير بن أبى سلمى يمثل فى آرائه هذه الطائفة المتطلعة إلى مثل دينى يشبع تحنفها قبيل الإسلام ، وطرفة مثال الالحاد اليائس فى الجاهلية ، وحسان صورة لنهضة الإسلام ، وجرير مثل العراك الحزبى والقبلى فى العصر الأموى ؛ وأبو نواس صورة عباسية ، وهكذا نجد الأديب يحكى عصره ولا يمكن فهمه وانصافه إلا بدراسة هذا

العصر فى أغلب نواحيه ، وإلا تراءى لنا بعض آثاره شاذاً غير مألوف أو هيناً لايستحق العناية .

وإذا كان الأديب ثمرة بيئته فمن المشكوك فيه أن يكون نابغة لو تقدم عصره أو تأخر عنه ، ما دامت عوامل البيئة قد وجهته ، وأكسبت شعره أو نثره قيمة موضوعية وفنية ممتازة ؛ فهل كان أبو نواس يفتح فى الشعر ما فتح لو كان أموياً ؟ وهل كان المتنبي يكون حكيم الشعراء أو المعرى فيلسوفهم لو لم تنته إليهما خلاصة الثقافة الإسلامية أو يقعا فى تجارب كشفت لهما أسرار الحياة والأحياء ؟ ولكن المؤكد أن أحد هؤلاء لو عاش فى غير عصره ما اكتملت له هذه الميزات الأدبية التى ظفر بها حين عاش وحيث عاش .

رابعاً — أننا نجد للحياة السياسية والاجتماعية سلطاناً على الفنون الأدبية أيضاً فكثيراً ما تعين فناً على الذيوع والقوة وتدفع بغيره إلى الخمول أو الممات ، وإذاً ، فعند التاريخ وحده نجد تعليل ذلك ، وتبيان دواعيه ، فما سبب تقدم الهجاء فى القرن الأول ؟ ولم اختصت الحجاز بالغزل وما إليه أيام الأمويين؟ وما بال الخطابة تقوى منذ الإسلام إلى صدر العصر العباسى ؟ وكيف نجد الأندلسيين ممتازين فى فن الوصف ؟ وماذا جعل النثر العصرى فى هذه الروعة أو البراعة .

فالهجاء كان نتيجة الانقسام السياسى والعصبيات القبلية فى القرن الأول ، وفى الحجاز كان يعيش السراة من قريش مصروفين عن السياسة فقتلوا فراغهم بالغناء والنسيب ، وكانت الخطابة أداة الدعوة الدينية والسياسية منذ ظهور الاسلام ، فلما استقر الأمر للعباسيين وكبتت الحرية ضعفت معها الخطابة . وأما الأندلسيون فقد فتحوا أبصارهم على طبيعة جميلة متنوعة المشاهد فوصفوها شعراً ونثراً . وقد أتيح لعصرنا من ثروة الفكر ، وحسن التربية ، ونشاط الحياة السياسية والعلمية والفنية ، مع صفاء الذوق ، والتحلل من الصنع ما جعل النثر الحديث ما نرى .

خامساً — أن البيئة تؤثر أيضا على الأساليب التى يعبر بها الأدباء ، فاذا درست أطوار الأساليب العربية فى عصور التاريخ ، وجدت أن ما نالها من طوابع مختلفة إنما كان متأثراً بأسباب علمية ، وفنية ، وذوقية تحكمت فى العبارات والأخيلة ، فصاغتها على مثال خاص ، فالطبائع والحياة الجاهلية السهلة جعلت أساليب الشعر الجاهلى طبعية لاتصنع فيها ، كما أن الذوق الفنى وصل بين زهير والنابغة والحطيئة ، وكان للفلسفة وعمق المعانى ، والتعلق بالبديع أثر فى أساليب أبى تمام ، وليس من شك أن كان للفن الفارسى والفراغ أثر فى الأساليب النثرية فى القرن الرابع ، وأن حرية النثر الحديث وفراهته ناشئة عما قدمنا من أسباب أقليمية .

سادساً — أن هذه الميزات التاريخية لكل إقليم تفسر لنا نشأة الآداب القومية فى أقطار الشرق العربى ، فانه على الرغم من وحدة اللغة وعلومها العربية نجد الأدب المصرى يخالف العراقى ؛ وهما يختلفان عن الأندلسى أو الشامى فى بعض الصفات ، ولا يمكن إيضاح ذلك إلا بالرجوع إلى العوامل التاريخية لكل إقليم .

من كل هذه الفوائد التى ذكرت للطريقة التاريخية ، تستطيع إدراك قيمتها فى تفسير الأدب وتعليل كثير من فنونه وميزاته ، وفى بيان الدرجة التى بلغها من تصوير بيئته وأن النقد الفنى الخالص لا يستطيع الكمال دون الاستعانة بها . ومع ذلك فقد أخذ عليها الباحثون نواحى قصور نجملها فيما يلى :

الأولى — أن هذه الآثار الأدبية التى تنشأ فى عصر ما ليست ثمرة هذا العصر وحده لكنها — بحكم قانون الترقى والاستحالة — ثمرة هذا الماضى الموروث قبل الحاضر المستحدث ، والوقوف عند هذه الطريقة يدفع بالباحث إلى خطأين : الانخداع ورد كل شىء أدبى إلى ما يجرى فى عصره كأنه مرتجل حديث ناسياً هذه القرون الماضية وما أثرها ؛ ثم الانصراف عن شخصية الأديب وما لها من

أثر وفضل فى هذه المنشآت ، وهى على قيمتها ، تعجز الطريقة التاريخية عن تحليلها فى أغلب الأحيان . ومعنى ذلك أنها طريقة تتجه إلى الأدب دون الأديب.

الثانية أنها — فى اتجاهها إلى الأدب — إنما تعنى بموضوعاتها ومقدار صلتها بالتاريخ ، وتأثرها بالبيئة ، دون عناية بالناحية الفنية التى تتصل بعناصر الأدب ونقدها وبيان ما فيها من حسن أو قبح ، إنها تفسر الأدب تفسيراً عاماً ولا تتغلغل إلى باطنه لاستخراج أسباب جماله وتأثيره ، فاذا فسرت لنا أسباب خطبه زياد والمعانى التى طرقها فانها لا تعرض لعباراتها الحازمة ، وموسيقاها الجميلة ، ومصدر قوتها ، وما قد تشمله من عواطف صادقة وعزيمة ماضية وأسلوب قويم . هذه النواحى قد تنهض بها طريقة أخرى مع الاستعانة بالطريقة التاريخية .

ثانيا — الطريقة الشخصية

أو طريقة اتخاذ سيرة الأديب وسيلة لفهم آثاره ونقدها ، وذلك أنه لما كانت النصوص أو الكتب الأدبية تصدر مباشرة عن نفس الأديب ، كان من الحق على الباحث أن يرجع إلى هذه النفس بالدرس والفحص لعله يتبين جوانبها ويرد خواصها إلى أصولها الأولى ، وهو بذلك ينير لنفسه سبيل الدرس ، ويستطيع تفسير الأدب وتعليل خواصه وتقديره ، ويكون الأدب بناء على هذه الطريقة سجلا للتاريخ الخاص بالأديب لا مرجعا للتاريخ العام للشعب جميعه ، وتقوم الصلة هنا بين الأدب والأديب بعد ما كانت ، فى الطريقة السابقة ، بين الأدب والبيئة .

والسبيل إلى تحقيق مانحن بصدده أن يعود الباحث ، بما يتاح له من الوسائل ، إلى الأديب فيدرس سيرته منذ الطفولة ، وما تيسر له من ثقافة وتهذيب ، وما انتابه فى حياته من مؤثرات ، ومن صحبه وعلمه ، وأى مزاج غلب عليه ، وما التقاليد التى خضع لها ، وأى عوامل سياسية أو اجتماعية أثرت فى حياته حتى

انتهت به إلى شخصيته الفذة التى صدرت عنها هذه الآثار فكانت تعبيراً عنها وسجلا صادقاً لسيرة صاحبها ؛ فهذا شوقى الشاعر ، لنفهم آثاره لا بد من معرفة نسبه الصحيح ، وصلته بالبيت المصرى الملكى منذ نشأته ، ثم صلته تبعاً لذلك بالخلافة الإسلامية بالآستانة من أول القرن العشرين ، ثم ما كان هو فيه من ثراء جعله يعيش مترفاً ، لايحسن الاتصال بالشعب كما اتصل بالقصور وذويها ، فكان شعره ملكياً فى التاريخ والمديح والأوصاف ، ثم مادفع به إلى الأندلس إبان الحرب الكبرى فابتدأ يعيش للشعر يجوده ويستهم شيطانه مخلصاً ، ثم عودته واتصاله بنهضة مصرية شرقية قسمت شعره بين مصر والشرق العربى ، ومحاولته أن يتنفس فى أفق أسمى وأوسع لينهض بالشعر العربى ويفتح فيه تحقيقاً لأطماع النهضة الأدبية الحديثة ، وذلك يجعل شعر شوقى قصة حياته يسايرها خطوة خطوة ، وعلى ذلك يكون ترتيب الديوان طبقاً لأطوار الحياة وملابساتها . ومسألة السير هذه شغلت فراغاً كبيراً من تاريخ الأدب العربى وكانت كتب التراجم أكثر ما عنى به السابقون كابن قتيبة والأصفهانى والثعالبى وياقوت وابن خلكان وغيرهم كثير ، وإن لم يذهبوا فى حكايتها مذهب التفصيل ، والتحليل ؛ فقد لاحظوا الفرق بين شعراء البادية والحاضرة ، وتأثر بعض الشعراء ببعض ، وآثار الأمزجة والعقائد فى الكتابة والنظم ، ونحو هذا مما يعد مثلا لصلة الأدب بسيرة الأديب

كذلك نستطيع بسيرة الأدب ، أن نفسر خواص الكتب التى يؤلفها كما لحظنا ذلك عند الجاحظ من قبل ، وكما نرى الكاتب الدستورى يؤلف فى المجالس النيابية وحرية الشعوب وحقوقها فى رقاب الحكومات . وكما رأينا كتاب نهج البلاغة لمؤلفه الشريف الرضى يتضخم وينسب لعلى بن أبى طالب من الخطب والأقوال ما يستحيل أن يكون له فسبب ذلك أن الشريف شيعى نسب إلى على

من أنواع الأدب الشيء الكثير تكثيراً لآثاره ، وهكذا نستطيع أن نذكر لهذه الطريقة ما ذكرنا للطريقة السابقة من فضل على دراسة الآثار الأدبية فى فنونها وأساليبها .

ومع ما لهذه الطريقة الشخصية من فضائل فقد تعرضت هى أيضاً لأنواع من القصور نذكرها فيما يلى :

أولها : أن هذه الطريقة تعرّض متبعها لعصبية دينية ، أو مذهبية أو جنسية أو ذوقية فيميل فى تفسير الأدب أو نقده مع هذا الهوى الغريب الذى ينقل الدراسة من مجالها الحقيقى إلى مجال الدعاية السخيفة ؛ فالمسلمون ربما فضلوا الفرزدق والمسيحيون قد يؤثرون الأخطل ، والفرس يفضلون أبا نواس ، والروم يميلون مع ابن الرومى ، ورجال البديع لا يرون شاعراً كأبى تمام ومسلم ، وشاعر الفلاسفة هو المعرى ، وأصحاب عمود الشعر وجماله مع البحترى وهكذا تصبح الأحكام النقدية خاضعة لأسباب مذهبية أو نفسية خاصة . ومن الحق أن كثيراً من النقد القديم والمعاصر متأثر بهذه النزعات كما تجده فى الأغانى وكتب الطبقات وفى الصحف والمجلات . ولذلك كنا فى حاجة إلى الاحتياط فى الأحكام والبعد عن هذه المؤثرات التى تبرزها سيرة الكاتب أو الشاعر ، ولقد كان من ذلك أن ثار كثير من النقاد على هذه الطريقة ونادوا بابعادها قائلين لا يعنينى فارسية أبى نواس ولا تهتكه ، ولا زهد أبى العتاهية وتحرج المعرى ، وإنما يعنينى النص الأدبى وما قد يكون فيه من صفات القوة والجمال ، كالرسم يعنينى جماله مهما يكن راسمه .

ونحن نخشى كذلك المبالغة فى هذه الحيطة المفرطة أن تفقدنا ما لسيرة الأديب من فضل فى التاريخ والنقد الأدبى وبخاصة إذا كان الأدب صورة قوية للشخصية ، وذلك لاختلاف الشخصيات وقوة آثارها فى المنشآت الطبيعية غير

المقلدة ، فمعرفة السيرة نافعة على الأقل فى بيان مذهب الأديب ووجهة نظره ، وهذا يعين على دقة فهمه وتقديره .

ثانيها : ما قد تقضى به من إسناد كل شىء إلى شخصية الأديب وحياته الخاصة وإغفال آثار البيئة العامة وعواملها ، مع أن الأنسان ، مهما تكن أسباب نباهته ، متأثر بما يجرى حوله من أحداث وما يحيط به من مشاهدة وتقاليد ، سواء أكان معها أم عليها فيكون أدبه ، ولو بدرجة هينة ، ثمرة التفاعل مع هذه البيئة ولذلك تجد فى العصر الواحد والمكان الواحد المتفائل بجانب المتشائم ، والزاهدَ مع الخليع ، والحكيمَ والطائش الجاهل .

نعم هناك أفراد تعلو بهم عبقريتهم على الزمان والمكان ، ويكونون ملكا للبشرية كلها ، فيصورون ، ولو فى بعض ما يتركون ، خواص الانسانية والطبيعة فى أبعد مثلها وأعمق معانيها المشتركة بين الأفراد والطوائف وفى كل مكان كما يروى لشكسبير أو هومير . ولكن هذه الأمثلة على قلتها لاتسلم من بواعث إقليمية أثرت فى الأدب ولو بطريق غير مباشر .

ثالثها : أن هذه الطريقة تتخذ سيرة الأدب وسيلة إلى درس أدبه ، مع أن الباحثين يعكسون الوضع فيتخذون الأدب وسيلة لمعرفة السيرة ، ولاسيما إذا تعذر معرفة الحيوات الخاصة للأفراد كما هو المقرر فى العصور الماضية خاصة ، وهنا أثيرت هذه المسألة : أيهما أصح : دلالة الأدب على حياة الأديب أم دلالة حياته على أدبه ؟ وعندى أن الأدب يدل على صاحبه وقت الإنشاء أى وقت انفعاله ، وقد يكون هذا الوقت غير عادى ولا مألوف [1] . ولعله هو الذى يعنى الدراسين والنقاد لأنه وقت الإلهام الفنى الممتاز

ولذلك تجد حسان بن ثابت شجاعا فى شعره دون سلوكه ، ذلك لأن حماسة الشعر إنما كانت ثمرة لهذه اللحظات الانفعالية التى شملته وقت التغنى بالقول ،

(١) راجع الأسلوب لأحمد الشايب ، ص ١٠٨ طبعة ثانية .

فلما انكشفت عاصفتها عاد الشاعر إلى إلفه العادى وحياته الطبيعية العاقلة . وهذا يكشف لنا عن هذا التناقض الذى نلحظه بين صورتى الأديب : فى سلوكه الاجتماعى وفى آثاره الأدبية .

رابعها — أن هذه الطريقة ستبقى قاصرة عن أن تتعمق لتصل إلى أسباب الجمال والقوة فى الأدب ، ومبلغ ما تعنى به هو المعونة على فهم موضوعات الأدب وتعليل بعض فنون الأديب وأوصافه العقلية والخيالية فيما يقول ، ولكن التحليل العميق لعناصر الأدب ومواطن تأثيره يتجاوز جهد السير وميدانها ، فزياد خطيب حازم وقف مع معاوية وثار فى وجه العراقيين وبلغ من التوفيق مبلغا ساميا بخطبته البتراء .. كل ذلك تشرحه سيرته بتأثره بعمر بن الخطاب وأخذه بآداب القرآن ، واستلحاق معاوية له ، والاعتماد عليه لما حزب الأمر . ولكن كلامه وأسباب قوته وخواصه الموسيقية ، وكيف أخذ على الثوار نفوسهم ، ذلك ميدان آخر يتصل بعبقرية زياد ومواهبه التى قد يعجز التاريخ العام والخاص عن الخوض فيها . لذلك كنا فى حاجة إلى طريقة أخرى أدخل فى باب الأدب وأوثق بجوهرة ولعلها الطريقة الثالثة .

ثالثا — الطريقة النقدية

وهنا نتصل بالنصوص الأدبية مباشرة لنعرف خواصها الفنية وقيمتها فى ذاتها بصرف النظر عن قائلها أو عصرها ، فنسأل عن القصيدة ، أو الخطبة ، أو القصة أو الرسالة : ما قيمتها باعتبارها قطعة أدبية ؟ ما سر قوتها وجمالها ؟ لماذا خلدت على الأيام ؟ والحق أن هناك من الآثار الأدبية ما يثبت أمام التاريخ والنقد الأدبى ، ويجيب عن هذه الأسئلة الدقيقة دائما دون حاجة إلى الرجوع إلى بيئته أو منشئه. والسبب فى ذلك ، كما قيل سابقا ، أنها قامت على عناصر عامة لا ترتبط بزمان

أو مكان أو قائل بعينه . وقد قيل عن شكسبير « أنه ليس ملكا لأى عصر بل لكل عصر » ويمكن أن يدخل فى هذا الباب كثير من حكم المتنبى وآراء المعرى التى تعبر عن الطبائع والغرائز الإنسانية الخالدة فتكون مؤثرة فى كل نفس لأنها صورتها التى تعلو على البيئات جميعاً .

هذا الكلام يصح بالنسبة إلى الأفذاذ من كبار الأدباء . أما كثرتهم فقد عرفت ما لعوامل الحياة من سلطان على ما ينشئون حتى إنها تتقدم أحياناً فتؤثر فى جمال التصوير وحسن التعبير ، وقد قيل لابن الرومى لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال : مثل ماذا ؟ فقيل له : كقوله فى الهلال :

انظُر إليهِ كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال : ثم ماذا ؟ فقيل له : قوله فى الآذَرْيون ، وهو زهر أصفر فى وسطه خَمل أسود :

كأن آذريونها غِبَّ سمَاءٍ هَامِيَهْ
مَداهِنٌ من ذهب فيها بقايا غالية[1]

فقال ابن الرومى : واغوثاه ! ذاك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت أين يقع قولى من الناس ، فهل لأحد قط مثلُ قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرتْ أيدى الجنوب مطارفاً مِن الجود كناً ، والحواشى على الأرض
يطرِّزها قوسُ السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثرَ مبيض
كأذيال خَود أقبلت فى غلائل مصبَّغة ، والبعضُ أقصر من بعض

على أن هؤلاء الأفذاذ إنما كانوا يستلهمون عصورهم ويتأثرون بحياتهم فيما تناولوا وأنشأوا ولو من الناحية الموضوعية ، ثم امتازوا بعد ذلك بالعمق وتصوير

(١) الغالية : الطيب .

الصفات والعواطف الخالدة ، فالحب فى روميو وجوليت ، والغدر فى الملك لير ، والغيرة فى عطيل كلها صفات إنسانية خالدة عرضها شكسبير فى قصص يخفق لها كل قلب ، و يتأسى كل عقل ، و يثور كل ضمير حيث كان وحين يكون ، ور بما كان من الملاخظ أن يكون أمثال هؤلاء جامعين بين وصفين متناقضين فى الظاهر ؛ فهم متصلون بعصورهم حين استلهموها الموضوعات والعناصر وهم فوقها فيما صوروا ، وأوسعوا آفاقهم ، وتعمقوا فى الإدراك .

نستطيع إذاً أن نحدد هذه الطر يقة ونميزها من الطر يقتين الأوليين ، بأنها تتناول الأدب فى جوهره وصفاته التى تجعل منه أثراً فنياً ، وتحاول بيان المقاييس التى نسترشد بها لبيان قيمة النص ودرجته ، فترده إلى عناصره ، وتنظر فى كل منها متبينة أسرار قوته وتأثيره أو أسباب ضعفه وقيمته ، وهى الطر يقة الجدية فى فن الأدب ، وهى التى نخصص لها الفصول التالية من هذا الكتاب .

ومن البدهى أننا لا نستغنى استغناء مطلقاً عن الاستعانة بالتار يخ والسير ، فهما كما قدمنا مصباح ينير سبيل النقد ، و يعين على الانصاف وحسن التعليل ، و يمهد للظفر بمقاييس صالحة للحكم على جميع العناصر الأدبية منفردة أو مجتمعة فما النقد الأدبى ؟ وكيف يكون ؟